حلف الفضول

عند العرب

وأثره فى العصر الحديث

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ - ١٩٩٧م

هـذا الكتاب

محاولـة لاثبات أن العـرب كـانـوا أسبق حضارة وأن بـداوتـهم كانت غطـاء يصـون تلك تلك الحضارة حتى بلغت شـأوا ٠

ثم هـو صورة زاكـية لنمـاء الـتراث الاسلامـى فى شتى جـوانبـه ومنـهـا الجانـب الاجتمـاعـى عـلـى وجـه الخصوص ،مـع إثبـات تقـدم المسلمين فيـه ٠

بيد أن هـذه المحـاولـة لـم تقف عـن حـد السرد وانمـا كـانت فيهـا جولاتـه دفعت الى المقـارنـة والمقابلـة بين الانظمـة التى تدعـى التقـدم وبين حضـارة الاسلام فثبت أن نبـات الاسلام يـزكـو وأرض تخصب وأفكـارة تعـلـو واللـه غـالب عـلى أمـره ٠

د / محمد الغـزالـى

((الاهـــــــداء))

الـــى

ذلكـم الشيـــخ الوقـــور •

القلــب الشجـاع الجـــور •

عنـــد النـــوازل صبـــــور •

وفى المنـــح الالـهيـــه شكـــور •

ذلكـم هـــو الاستاذ الدكتــور / رفقـى علـى زاهـــر •

أستـــاذ العقيـــده والفلسفـــه بجامعـــه الازهــــر •

فاليـــه أهـــدى هـــذا السفـــرا بقليــــــل •

** رحمـــه اللـــه ، وجعـل مثـواه الجنــــه ،

د / محمـــد الغـــزالـى •



تضـــرع وخيفـــــــــة

قـال تعالـى :

" واذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً
وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِ والْآصَالِ
وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ "

صدق الله العظيم

ـ الأعراف آية : ٢٠٥ ـ

ـ ـ ـ ـ



الاستفتـــــــــاح

قال تعالى :

" وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ "

صدق الله العظيم

ـ الأعراف آيـة : ٨٩ ـ

قال عليه السلام :

" لقد شهدت فى دار عبدالله بن جدعان حلفا . ما أحب أن لى به حمر النعم . ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت "

صدق رسول اللـه ....

ـ ابن هشام جـ١ / ١٧٨ وابن كثير جـ٢ / ٢٤٠ ـ ٢٥٥

مقدمـــــــــة

الحمد لله رب العالمين . الواحد الأحد ، المتفرد بالجلال والكمـال . الذى أكرمنا بنبى الاسلام . وغمرنا بفضله وجزيل عطاياه . ونصلى ونسلـم على خاتم أنبيائه . ودرة رسله . وصفوة عباده . ورحمته المهداة . سيدنا محمـد ابن عبدالله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن والاه ، واكرمنا يارب بشفاعتـه واجعلنا من أمته . المرتادين لحوضه المنطوين تحت لوائه حتى ترضى عنـا وبعـــد ......

فان التجنى على العرب عامة ، والمسلمين بخاصة ، قد بلغ شأوا ، وشغـل فراغا ، وعمل القائمون به على اذاعته فى كل مكان واشاعته بكل لسان ، وأغلبهـم مدفوع الى هذا التجنى بحكم تعصب بغيض ، أوعدوان تليد ، أو تلقين غير سديد، والبعض الآخر يلقى به دون تأصيل لفكرة ، أو تصويب لرأى . وربما بحسن ظـن ، أو سوء طوية .

ويبدو للباحث المنصف أن القضية التى لاتعضدها الأدلة هى مجرد دعـوى لايعرفها البرهان . ولايصدقها الواقع. فضلا عن مخالفتها لبدهيات اليقـين ومثلها محكوم فيه بالرفض ، وان قبلت شكلا . مهما كان صاحبها قد أكسّنَ فيها، وزين لها مانحها من عرقه ، أو صابغها بحرارة حقده ، أو ضاربها بلهيب غلـه .

من هنا جد الكثيرون ، وشمروا عن سواعد نحيلة ، وحشوا فى تراث العـرب قديما وحديثا وتخيلوا من أنفسهم خصوما وقضاة ، وراحوا يضعون العرب فى أقفاص الاتهام وجدّوا بكل ماوسعهم فى توجيه أدلة الاتهام اليهم ، ثم حكموا غيابيـا بما رسمته مخيلتهم ، وأملاه عليهم تعصبهم وبغضهم ، حتى كانت نهاية الأحكام أن العرب ليسوا أمة . بل هم نكارة فى التاريخ وجهالة فى السلوك ، ورعونة فى التفكير وأنهم تجار فسق وخمر ، وهواة قتل ونهب وسلب ومثل هؤلاء يجب أن يمحـوا من

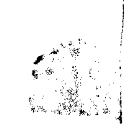


سجلات التاريخ الأسمى ، التى لايحتفظ فيها الا بالأمم التى لها فى الحضارة النصيب الأوفى · والمشاركة فى المدنية بالصورة المُثلى · والعرب – فى زعمهم – ليس لهم فى هذين نصيب ·

ولما كانت الأحكام الغيابية تقبل الطعن والنقض ، قمت أبحث عن حياة العرب قديما · فاذا هى مدنية راقية · فى كل جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وأنها كانت بالنسبة لمن حولها من الأمم ، تاج العلا فى مفرق الرأس وحق نالت جدارتها فى حماية البيت العتيق والقيام على شئونه وحجاجه ، وأنها الغرة فى جبين الأشهل ·

ولما جاء الاسلام مبعوثا فيهم ، ورسم الصورة الكاملة للحياة الدنيا والآخرة ، ونهض بهم من حياتهم الى المثل العليا ، التى لاسلطان فيها لرأى بشر ، ولامكان فيها لناقص الأهلية أو قصير النظر · فانطلقوا به فى كل مكان · يبلغونه للناس أمناء فى حمله بلغاء فى الدفاع عنه · فوارس عند ملاقاة أعدائهم · فبلغوا به القمة وسادوا المشرقين حتى ارتفع الآذان بالتوحيد والشهادة على كل يفاع فى الأرض ومشتى ومنتجع ·

والباحث المنصف ، يجد أنماطا مختلفة ، وهالات بيض ، فى تاريخ الحياة العربية والاسلام ، تستبد به الحيرة فى تناول احداها لبيان فضل العرب والاسلام على غيرهم من الأمم التى تنكبت الطريق ، وانفلت زمام الأمن منها ، ولم يجد قادتها شاطئا تقف عنده سفنهم المفزعة ، أو يستقر على سواحلها الهشة شئ يمسك عليهم حياة آمنة أو موتا شريفا ·



بينما نجد لدى العرب الكثير من ذلك " حلف الفضول " الذى تعدد لديهم ورسم القائمون بأمرهم فيه صورة بارزة محفورة فى جبين الدهر ، للحياة الآمنة والموت الذاكى ، والتقدم الحضارى والتكافل الاجتماعى ، ومعرفة ما لكل فرد فى الأسرة ، من حقوق وما عليه من واجبات ، كما رسم " حلف الفضول القرشى " أمثل خطوط

لعالم زمانه ، تركت أثرها على حضارة العالم الحديث .

وقد هدفت من ذلك لازاحة الستار عن جانب من جوانب الابداع الفكرى والسلوك الاجتماعى فى حياة العرب قديما وفى ظل الاسلام ، وكشف الغموض عن نظرتهم السياسية التى تخطتهم الى قرون متطاولة وفى أمم متعددة ، وكذلك جانب الالهام الاقتصادى الذى حفظوا بـه حياتهم من التدهـور رغم وجودهم فى مجتمع يلبس الجفاف أغلبه ، وتجثم الصحراء على مناطق شاسعة فيه . فلم يضطروا الى تعويم عملتهم ، أو الاستدانة بسعر الفائدة ، كما لـم يقبلوا من أحد استعمارهم تحت اسم الحماية العسكرية ، أو الأمن الاقتصادى أو التكامل الثقافى .

وما من شك فى أن هذا العمل قد امتص منى الجهد ، وعانيت فيه بقـدر ما عانيت واجتهدت فى استخلاص النتائج ، واصدار الأحكام بعد دراسة متأنيـة وطول معاناة . وفى النهاية فلا أزعم أنه خلى من الأخطاء . فالعصمة لله وحده ، ولأنبيائه ، وانما أنا بشر يخطئ ويصيب . فان اكن أخطأت فمن نفسى . وان تكن الثانية فمن فضل الله وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليـه أنيـب .

د/ محمد حسينى موسى محمد " الغزالى "

ـــ .

الفصـــل الأول

ـــ﴿ مفهـــوم الحلـــف ودلالتـــه ﴾ـــ

تمهيـــــد :

لم يكن باستطاعة العقلية العلمية بوضعها الراهن ، أن تأتى من فـراغ ، أو تبلغ الشأو دون بداية لها ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، اذ ليس من شأن العلـم أن يأتى من فراغ مطلق ، حتى فى ميدان الأبحاث التجريبية ، وانما تسبقـــه محاولات جادة ، بعضها يترك علامات له ، والبعض الآخر يتلاشى مبكرا .

والسابق عادة يفيد اللاحق ، بما يتركه من خلاصة فكره ، وعصارة ذهنـــه ، وغاية مجهوداته ومن الطبيعي أن يستفيد اللاحق من سابقه ، اما بمنهجـه ، أو طريقة معالجته لموضوعاته ، أو استخدامه لما تركه من قواعد صارت مسلمة أو بدهية .

ومن المعروف أن الانسان العربي — من أول أمره — مشغول بنظام دينى يربطه بخالقه العلى العظيم وهذا ما يدفعه من حين لآخر الى العمل فى طريق محبة الله وطاعته ، ويولد فيه رغبة قوية لنصرة المظلوم ، ودفع غاية الظالم ، يبذل فـى سبيل ذلك دمه وماله وولده ، ايمانا منه بالواجب الأسمى ، والعمل المقـدس . وربما كان هذا من أسرار عظمة العربي ، وتمسكه بحضارته التى رفع بنيانها الآبـاء ومن قبلهم الأجداد .

ولم يكن العرب فى تاريخ الجاهلية ، أمة نكراء ، ولا قبائل بلهاء ، ولا أفـراد فيهم البغضاء بل على العكس ، كانوا أمة متحضرة ، يزينها مجهود أبنائهـــا ، فى علوم الأثر والفلك ، والتجارة حتى فرضوا ثقافتهم على غيرهم من خلال رحلـتى الشتاء والصيف ، والعمل بالتجارة فى كل اتجاه وكان شعراؤها هالة بيضاء فـى جبينها والحنفاء ، حتى وعت حوافظهم ما يحتاج الى مجهودات شعوب كثـيرة ، ويؤكد ذلك علـم الأنساب ، وكانت المحبة التاج الذى يزين فيهم اكرام الضيـف ونصرة المظلوم ، ونجدة المستنجد ، واغاثة الملهوف ، ولم تكن العداوة والبغضاء الا دفاعا عن كل هذا ، أو بعضه ، مما يرسم معالم أمة فى الشهامة والكرم والعفة

والشجاعة ، وكريم الأخلاق . وطيب الأعـراق .

ولم تكن البيئة العربية قبل الاسلام الا خميلة وارفة الظلال يتفيؤها العقل الانسانى يرتع بين أفكارها ، وينعم بمجهودات رجالها فارتسمت فى أذهـان البلغاء ، وهالجت الهام الشعراء ، وعاشت فى مخيلة الأدباء ، ونمت الى رحـاب الفلاسفة ، كما تزينت بالحنفاء حتى ان اجتماعات قبائلها ، وأحلاف رجالهـا ومواثيق أبنائها ، ومعاهدات كرامها ، صارت قوانين عند أمم غيرها ، بل واستفاد العالم القديم والمعاصر والحديث بها . خاصة بعد أن صبغها الاسلام بالدوام ونقاها من الشوائب والهوام ، التى كانت تفسد عليها هدوءها فى بعض الأحيان .

وعلم الاجتماع بمفهومه الحديث ، من العلوم التى ارتضعت ألبان البيئـة العربية ، قبل الاسلام ، وأثناءه الى الآن ، ذلك لأن العرب ، كفلوا لأنفسهـم توثيق روابط ، وتوقيع عهود ، وتجميع أفراد ، وتوطين أمم بالعلم والحكمة والمعرفة يقودهم فى ذلك ماعقدوه من أحلاف ومعاهدات ، استفاد بها علم الاجتمـاع . ومنها "حلف الفضول" الذى نحن بصدد الحديث عنه فى هذه المحاولة . وماتركـه من أثر فى النواحى ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكريـة علـى السـواء .

مفهوم الحلف ودلالتـه في اللغـة

لما كانت الألفاظ أثوابا للمعاني ، لزم أن نوضح معنى الحلف ودلالتـه اللغوية والاصطلاحيـة والتواضعيـة .

الدلالـة اللغويـة :

قال صاحب "أقرب المـوارد" :

الحلـف : مصدر بمعنى العهد يكون بين القوم ، لأنه لا يعقد الا بالحلـف . يقال بينهم حلف أي عهد - وهو هنا أشار الى أن الحلف يعني العهد [١] .

وقال الزمخشري : " حالفه على كذا ، وتحالفوا عليه واحتلفوا ، وحلف خصمه وأحلفه واستحلفه القاضي ، ووقع الحريق في الحلفاء ، وكأنه أخو الحلفاء أي الأسد .

ومن المجاز : بينهم حلف أي عهد . وهم حلفاء بني فلان وأحلافهم ، وهـذا حليفي ، وهو حليف الندى ، وحليف السهر ، وقال جريـر :-

محالفهم جوع قديم وذلـة ∴ وبئس الحليفان المذلة والفقـر

وفلان محالف لفلان . لازم لـه [٢] .

وقال صاحب "مختار الصحاح" : " الحلف بوزن الحقف [٣] . العهد يكـون بين القوم . وقد حالفه . أي عاهده . وتحالفوا تعاهدوا . وفي الحديث أنـه حالف بين قريش والأنصار . يعني آخى بينهم لأنه لاحلف في الاسلام " [٤] .

---

(١) سعيد الخوري : أقرب الموارد جـ١ ص ٢٢٢ - ط اليسوعيين .
(٢) الزمخشري : أساس البلاغة جـ١ ١٩٢ - ١٩٣ . باب الحاء - ط الشعب
(٣) الحقـف : المعوج من الرمل ، ويأتي منـه اسم الفاعل حاقف : بمعـنى المنحني والمتثني في نومـه . مختار الصحاح .
(٤) مختار الصحاح : مـادة حلـف .

من هذا كله يفهم أن الحلف المعاهدة والترابط والتواثق والتآخي بين فردين أو أكثر أو مجتمعين فأكثر، على دفع المكروه، والتعاون في جلب المرغوب. وفيه معنى القسم المؤكد الذى لاحنث فيه ولاتحلل منه بحال.

وكلمة حلف من الكلمات المشتقة، التى تطلق على أكثر من معنى، ولهـا مدلولات متعددة، وفيها تراكيب مختلفة، وردت فى القرآن الكريم، ونطقت بها آيات كثيرة فيها من المعانى والدلالات مايفيد منه علم الاجتماع وعلماؤه.

وكذلك أتت بها السنة النبوية المطهرة. دالة على الحلف، ودالة على الحلف، بمعنى المعاهدة، وأخذ العهد والتواثب اليه والتعلق به، وفيها كثير من الأحكام التى تناولت الحلف مادة ودلالة ومعنى.

ونحن هنا نطاول البحث، ونعاود الدرس، ونعيد البحث فى أرجاء التاريخ القديم لنبحث عن سجل حلف الفضول، فى الجزيرة العربية، على الخصوص، لأنها المرتع له والمرفأ.

الدلالـة الاصطلاحيـة :

الحلف هو العهد الموثق، بين الأثرياء المعروفين لدى العرب، فى مكة من قريش، وفيهم الفضول الثلاثة، على أن يحافظوا على البيت، ويراعوا حرمة جواره، ولايسمحوا بظلم فيه لأحد أبدا. ولايضيع فيه لأحد حق أبدا، وأن يردوا الظالم، ويقيلوا العاثر.

الدلالـة التواضعيـة :

هو الحلف الذى وقع بين أفراد العرب قديما، وفيهم نبلاؤهم، ومنديون عن بقية عشائرهم، وحرصوا من خلاله على تأكيد حرمتهم للبيت واحترامهم لـه، وأن يعملوا على ألا يقع فيه ظلم، أو جور. وقد تكرر ذلك فى الحلف كثيرا.





المحاولات الأولى للأحلاف

الانسان بطبعه اجتماعي ، يميل الى الأنس والألفة ، لأنه انسان يحمل الرغبة الى الأنيس والحاجة الى الأمن ، من هنا ظهرت محاولة الأحلاف الأولى ، عندما شعر أول انسان على الأرض بالرغبة فيها ، وهو آدم عليه السلام ، وأول حلف وقع كان طرفاه آدم وحواء ، وكانت نصوصه :-

١ - الايمان بالله . وهو جانب عقدي .

٢ - الاستمرار في طاعته بالقيام على تكاليفه وهو جانب شرعي .

٣ - محاربة العدو الوحيد وهو الشيطان الرجيم ، الذي تمثل لهما ناصحا ، وظهر لهما مرشدا ، ثم مالبث أن انكشفت حقيقته ، وعرفاه حق المعرفة . خاصة بعد أن أوقع بهما في المزلة :-

" فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ . وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ[1] "

٤ - التعاون المشترك في سبيل اقامة أسرة متكاملة ، عمادها تقوى الله وطاعته .

٥ - الالتزام السلوكي بكل مايصدر عن الله تعالى ، حتى ولو كان مخالفا لرغبة بينهم . كما حدث في قصة ابني آدم عليه السلام وحكاها القرآن الكريم في قوله تعالى :-

" واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ[2] " .... الى آخر الآيات التي تحدثت عن هذه القصة ، وأفاضت في تصويرها ، وكشفت عن حاجة الانسان الى أحلاف توثق صلته بأخيه الانسان ، وكان الحلف الأول بين آدم عليه السلام وزوجه وبنيه قائما على ما شرع الله .

(١) سورة البقرة الآيتان ٣٦، ٣٧ (٢) سورة المائدة الآية : ٢٧

الأخلاف في ميزان الوحي

تكفل الوحي الالهي للبشر، من طريق النبوة ، بوضع قانون ثابت للأخلاف يقوم على مايكفل لكل فرد أمنه وأمانه ، وحريته وماله ، ويصون زوجه وأسرته كلها ، حتى اذا أمِنَ كل فرد على نفسه وهو الخلية الأولى واللبنة الأصيلة لبناء المجتمع أمِنَ المجتمع كله بأمن أفراده ، وسكن بهم واستقر، فما وجد مجتمع أيا كان نوعه الا وهو مكون من أفراد هم أعضاؤه ، ولبناته وبناؤه .

والوحي أول ماياتي يؤمن للناس مايلي :-

١ - العقيدة السليمة : التي توضح العلاقة بين المرء وخالقه ، وتهديه اليه وتدفع به نحوه ، فيطمئن قلبه ، ويسكن فؤاده ، ويشعر بأن قوة عليا تراقبه ، تدفع عنه المكروه ، وتباعده عنه ، وتشرى فيه الأمل القوى ، في غد مأمول .

فينصاع لماتمليه عليه العقيدة ، ويأتمر بها ، ويشعر نحوها ، كأنها أمه تقوده ، بحنانها ، وتصونه كأنه أحد أفرادها ، فلاينطلق نحوها الا بولاء ، ولا يتقرب من نصوصها الا بمزيد من التقديس والاحترام . ولعل هذا ماأشار اليه الحديث القدسي في قوله تعالى :-

" عَبْدِي إِنِّي بِحَقِّكَ لَكَ مُحِبٌّ ، فَبِحَقِّي عَلَيْكَ كُنْ لِي مُحِبًّا (١) " .



وهو في حد ذاته أول نصوص الحلف بين الله الخالق العظيم ، وبين الانسان المكلف المطيع لأوامر الله ، المنفذ لتعاليمه . المصدق برسله وكتبه ، وملائكته ، وكل ماأخبر به الرسل والأنبياء من طريق الوحي المرسل من الله ، الى بني البشر والمكلفين من غيرهم . وهذا ماتمليه العقيدة الايمانية السليمة .

٢ - الشريعة القويمة : وهي التي توجه المكلف نحو العبادات ، وترشده الى طريقها القويم ، فتكون عبادته لله على صورة مثلى ، وسلوك سليم ، فاذا ذهب لمناجاة ربه في صلاته ، شعر بروحانية تملأقلبه وتحلق بوجدانه ، فيعود منها

---

(١) حديث قدسي .

مستريحا ، والى عمله مستقيظا ، ويصدق فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :- عن الصلاة : " يابلال أقم الصلاة " وفى رواية : " يابلال أقم الصلاة ارحنا بها (١) " .



٣ - المعاملات : وهى التى بها يتم تبادل المنافع بمعاوضات ومعارضات ، ولايستغنى عنها أى فرد فى أى مجتمع من المجتمعات ، اذ بها يتعامل الصانع مع الزارع ، والطبيب مع الصائغ ، والخابز مع التاجر . ولايستغنى أحدهم عن الآخر ، يبادله حرفة بمهارة ، وصنعة بمعارضة ، ولاينظم ذلك الا حلف مؤكد ، تقوم نصوصه على شريعة الله فى المعاملات .(٢)

وحسبك أن تنظر الى عملية البيع والشراء ، وما فيها من تعيين المبيع وشروط البائع والمشترى ، والقدرة على تسليم العين المبيعة وتسلمها ، وتحديد مواصفات كل منهم ، ثم يتأتى الخيار ، ليكلل ذلك كله قول الرسول صلى الله عليه وسلم :- " المتبايعان بالخيار مالم يتفرقا (٣) " .

وقضية الخلطة ، وأعنى بها الشركة فى اطار ما رسمته الشريعة الاسلامية ، وتقسيمها الى شركة المال والمنفعة والرعاية ، وايجابها لأركان تكفل لكل شريك حقه بوضوح ويحيطها حلف موثق من الله تعالى حيث يقول :-

---

(١) مسند الامام أحمد ج٥ص ٣٦٤ ، سنن أبى داود فى كتاب الأدب باب فى صلاة العتمة ج ٢ص ٥٩٣ ، والشيخ العجلونى فى كشف الخفاء ج١ ص ١٠٨ حديث رقم : ٣١٢ .

(٢) راجع كتب الأصول والفقه تجد الشريعة الاسلامية قد أفاضت فى بيان ذلك مما لانجد له مثيلا فى كل القوانين الوضعية أو التى تنسب الى السماء فى أديان سابقة .

(٣) سنن النسائى كتاب البيوع باب وجوب الخيار للمتابيعين ٢١٧/٧ والبخارى كتاب البيوع ج٤/ ٣٠٩ باب اذا بين البيعان . ولم يكتما ونصحا . وصحيح مسلم كتاب البيوع باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين ج٤/ ٢٣ ، وذكره =

" أنا ثالث الشريكين مالم يخن أحدهما صاحبه . فاذا خان خرجت من بينهما[1] "

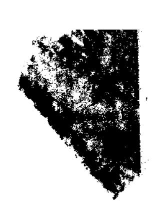
٤ ـ الايمان بالرسل : وهو صورة من التسليم بما للخالق العظيم من جلال وكمال ومهابة تفرض الطاعة ويختبر بها الانسان فيما يلقى اليه من أوامر ونواه حيث يعجز العقل عن ادراك كل مافيه منفعة ، كما لايمكنه احصاء كل مافيه مفسدة ناهيك عن مالايدخل في التجربة ، أو يكون الهلاك لاحقا لها اذا قام المرء فيها بالتجربة فتكون مهمة الرسول ، شاملة لكل مافيه المنفعة للمكلف ، بوضوح لايقبل اللبس ، وبيان لايعرف الغموض . وهى صورة مثالية للحلف الأول بين الخالق والمخلوق .

وما من حلف يتم بين قوى وضعيف ، وغنى وفقير ، ولايكون مصدره الا العلى القدير الا نجد أنه اشتمل على مصلحة الضعيف وأخذ الى ستر الفقير ، ونهج الى معالجة ضعفه وجبر كسره ، لأن الطرف الأول ، يرى .. بحكم ماله من كمال مطلق وحسن تدبير .. أنه أولى بافاضة خيره ، على عبده ، وهو تعالى العليم الخبير .

ومن الخير للمكلف ، أن يتفضل الله عليه ، فيرسل له المرسلين ، ويبعث له النبيين ، وأن يرحمه بالتنزيل ، وذلك فى حد ذاته ، تفضل من الله لاتكليف ، ورحمة لا وجوب ، وعطف لالطف ، وفيض لا أصلح . والايمان بالرسل ، يوثق هذا الحلف ، ويوحى بطاعة المكلف لخالقه . فينال بذلك ماأعده الله للمتقين .

ـ كل من الترمذى فى سننه ٢ / ٣٥٨ ، وابن ماجة فى التجارات جـ٢ / ٧٣٦ والدارقطنى فى كتاب البيوع حديث رقم : ١٤ جـ٣ / ٦

(١) الترغيب والترهيب جـ٢ / ٩٦٩ ، وأخرجه أوداود فى كتاب البيوع باب : فى الشركة جـ٢ / ٢٢٩ .



ولقد فطن كثير من اتباع المرسلين الى هذا ، فوثقوا عراه ، باتباع المرسلين فى محبة الله ، وتعلقوا بهم كل تعلق ، حتى افتدوهم بأنفسهم وأهليهم ، وحطوا فى رحابهم رحالهم تاركين بنيهم ، محققين قوله تعالى : " قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) " .

٥ — <u>الايمان بالغيب</u> : وهو جوهر العلاقة — بعد الايمان بالله — بين المرء وخالقه ، وهو صلب الديانة الالهية ، وميزان دقيق لصحة الايمان من ادعائه ، وتتمثل فيه صورة الحلف مع الله على أمثل صورها ، فاما ايمان بالله وبرسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر بكل ما فيه ، واما جحود بذلك كله .

ومن المسلّم به أن العقيدة الاسلامية كل له أجزاء ، يكمل كل منها الآخر ، ولا يكفى أحدها عن الآخر . فمن اختار الاسلام ، لزمه الايمان بكل ما فى العقيدة الاسلامية ، ومنها الايمان بالغيب ، وأعنى به ما جاء على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى الحديث الشريف ، أو فى القرآن الكريم .

كالايمان بالقيامة : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٢) " .

" يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣) " .

وقوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٤) " .



---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣١
(٢) سورة النازعات الآيات : ٤٢ — ٤٦
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٨٧
(٤) سورة لقمان الآية : ٣٤

وفى الحديث الشريف عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها الا الله ، لا يعلم أحد مايكون فى غد الا الله ، ولا يعلم أحد مايكون فى الأرحام الا الله ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يدرى أحد متى يجئ المطر[1] . رواه البخارى ...

والغيب فى دلالته . هو . كل ماغاب عن الحواس ، ولا يعرفه سائر الناس ، انما جاء الحديث به على ألسنة الرسل ، وفهم معناه الخواص ، وهو كل له أفراد فالجن والملائكة ، والجنة والنار ، والحوض وسائر السمعيات من الغيبيات وسواء تحقق فى أفراد له أولم يتحقق ، ولعل هذا ماعناه الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود حين قال : " أوتى نبيكم كل شئ الا مفاتيح الغيب[2] "

والايمان بالغيب على هذا النحو ، يمنح المؤمن حماية من الهزات ، ويؤمنه من العاصفات ، ويجعله يوثق حلفه مع الله ، وينضم دائما الى أعضاء حزبه ، واثقا من نصره ، مطمئنا الى عزه ، على يقين من أن حزب الله هم المفلحون والمقابلة توضح تلك الفروق التى بين حزب الله وحزب الشيطان يقول تعالى :—

" اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ . كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[3] " .

---

(١) تفسير القاسمى ج٦ ص ٢٣٤٣

(٢) الدكتور / احمد السيد الكومى ، د / محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام / ١٣٩

(٣) سورة المجادلة الآيات : ١٩ — ٢٢ .

من الذى مضى نخلص الى أن المؤمن بالله ، فى حلف دائم مع اللـــه ، يعمل على توطيده ، فى كل صلاته و سكناته وتحركاته وقيامه وصيامه ، فى كـل مكان وأى زمان ، لأنه يشعر بحاجته الى استمرار ذلك التحالف الذى يزيـده اطمئنانا ، ويدعوه باستمرار بالرغبـة والرهبة الى جانب الخالق العظيم .

ـ ـ ـ ـ ـ

الحلـف فـى أولاد آدم

قلنا ان الحلف يجب أن يكون بين المكلف وخالقه ، وانما يلجأ الناس الـى أحلاف أخرى لأمريـن :ـ

الأول : غياب المبلغ الذى يرشد المكلفين الى الله تعالى ، وهم الرسل فـى الفترات التى كانت تأتى فيها الرسالات متفرقة ، أو منقطعة ، ولقوم دون آخريـن فيشعر الآخرون ـ بحكم غريزتهم ـ بحاجتهم الملحة الى أحلاف تعيد اليهـم الهدوء الناشـز وتنشـر فيهم الأمن السليـب .

الثانـى : تخلف المكلفين عن مسايرة شرع الله ، وتخلفهم عن ركبه ، فلاينطلقون الى الصلاة والا وهم كسالى ولايؤدونها الا وهم كارهون ، ولاتنبسط أيديهم بالزكاة والصدقة الا قتيلا ، غلت أيديهم بالخوف من المستقبل ، واضطربت قلوبهم حرصا على الآتى المجهول ، حتى صارت عقيدتهم فى الله قرينة سلوكهم فى جانـب الشريعة . واهتزت كلتاهمـا أمامهـم .

وهؤلاء يلجأون الى جانب آخر هو تحالفهم فيما بينهم ، ولايقوم تحالفهم على معالجة الظواهر الكونية انما يقوم على أساس تأمين هؤلاء الأفراد من اخوانهـم وتأمين المجتمعات من جيرانهم ، فكأنهم أخافوا أنفسهم من أنفسهم ، كالسـارق الذى يخشى على نفسه من أن تسرقه نفسه أو تمتد يده الى أمتعته فتبـددها ، فالأمان له مفقود وفيه كذلك ، ولم نسمع أن مثل هؤلاء استقر لهم حال ، أو طـاب لهم مقام ، أو حلت بهم سكينة ، بل على العكس احترقوا بما التمسوا فيـه الدفء .

وغرقوا فيما ظنوا منه الارتواء ، وهلكوا بما شكوا أن فيه الأمان .

وهم لانعبأ بهم ، ولاعليهم نعول ، وان كان البحث فى علم الاجتماع يتناولهم فى مراحل تالية ومن هنا نركز حديثنا عن القسم الأول . ونعنى بهم الذين يلجأون الى الأحلاف لنقص فى مداركهم عن الوصول الى الغاية العليا ، ولعدم وجود نبوة فيهم ، أو رسالة تهديهم ، ويطلق عليهم أهل الفترة .

والمراجع لتاريخ الأمم ، المنقب عن أحوالها ، يواجه ظروفا كثيرة انفتحت فيها قاعدة الأحلاف على أوسع نطاق ، ولكنه يرى هذه الأحلاف لاتوجد الا اذا تنكبت الأمم سيرة أنبيائها وتناست تعاليمهم .

من ثم سيكون تناولنا للأحلاف قبل حلف الفضول القرشى ، من بعد نبوة الرسول . أتى رسول لأمته ، لنصل الى حلف الفضول القرشى ، الذى نحن بصدد الحديث عنه .

ولما كانت الظاهرة الاجتماعية ، لايمكن ملاحظتها ودراستها الا اذا كانت فى بنى البشر ، فاننا سنترك عالم الجن المكلف ، لنقصر دراستنا على بنى آدم وفى غير فترة الأنبياء . لعدم امكانية دراسة الأحلاف حال ابلاغ النبى لأمته ولأن لها تسميات أخرى ، ودلالات معينة غير التى اصطلح عليها علماء الاجتماع .

وبالجملة : فانه ما من أمة من الأمم الا وقد لجأت الى الدخول فى أحلاف ، أو معاهدات تنظمها مواثيق وعهود حاول المتحالفون المحافظة عليها والالتزام بها ، يعرف ذلك اليونان والهنود وأهل الصين ، فضلا عن المصريين القدماء بما يعرفه رجال التاريخ وماتحفظه الآثار ، ناهيك عن أسماء تلك الأحلاف ، والتى أوقدت حروبا ، وأطفأت أخرى ، والتى تعد بمثابة صمام أمن لغالبية دول العالم التى ألهبتها القوانين الوضعية .



الفصل الثاني

حلف الفضول الجرهمي

====

حلف الفضول الجرهمى

تمهيـــد :

لم تعرف كلمة حلف مضافة الى كلمة فضول ، الا عند العرب ، كما أنها لم تطلق عندهم الا وتعنى المعنى القديم لها والحديث أيضا ، وقد اختلف الباحثون فى اطلاق الفضول عليها ، أو تسمية الحلف " بحلف الفضول " الى قسمين :-

الأول : يرى : أن كلمة الفضول أطلقت على تحالف أفراد ، فضلوا فى أقوامهم وكان لكل واحد فيهم من علو الشأن ، ورفيع القدر ، ما يوحى بأنه فى عهده وعقده يمثل أمة .

الثاني : يرى : أن كلمة الفضول أطلقت على تحالف أفراد ، فضلوا فى أقوامهم وكان كل واحد منهم يسمى " فضل " وذلك فى قبيلة جرهم اليمنية فى زمنها الأول

وعندى : أن الفضول تحمل الرأيين معا . حتى يمكن القول بأن الرأى الثانى شمل الأول أيضا . ولامانع ، وعليه يكون المعنى العام لحلف الفضول هو : " التعاهد التام بين أفاضل القوم . على رد المظالم . والانتصار للمظلوم وفعل كل مافيه صالح الأسرة وبه صلاح المجتمع . دون تقيد بنوعية المظلوم ، ولاتهيب من هوية الظالم .

أسباب حلف الفضول الجرهمى

قبيلة جرهم من قبائل اليمن التى عاشت فى رحاب البيت الحرام زمنا ، مهاجرة من أول أن تفجر الماء من تحت أقدام سيدنا اسماعيل عليه السلام . ماء زمزم . وبعد وفاة اسماعيل كان لهم دور كبير فى الاشراف على البيت الحرام بكل موارده ومصادره .



ولم يدم الحال معهم طويلا ، اذ خلف فيهم ، من تجرأ على البيت الحرام . وصار يرتكب فيه كل جرائم الفسق والفجور ، حتى أجلتهم خزاعة عنه وقد رأى بعض الفضول فيهم أن الفساد الذى انتشر يجلب غضب الجبار . فخاف الفضول على قومهم ، واتخذوا قرارهم .

وراح أحدهم يدفع عن قومه غضب الله بطريقة هداه اليها فؤاده . وهى أن ابتاع لوحين من النحاس ، وجلد غزالة جمع فيه كل أموال البيت الحرام ، وامتدت يداه للذهب فحشى به الجلد . وردم باللوحين والجلد البئر عسى قومه أن تراودهم أنفسهم فيعودوا الى رحاب رب البيت العتيق . وكان ذلك الفاعل هو " مضاض " الجرهمى .

وتمكن من ردم البئر ، وظلت كذلك ، حتى هدى الله اليها شيبة الحمد " عبد المطلب " ورأى فى منامه ما يدفعه الى اعادة حفرها . وتجدد الحفر فى عهده . وعثر على الذهب الذى واراه الجرهمى فيها . وما تزال الى اليوم ، يستمتع بها المسلمون ويرتوون . أكرمنا الله بها آمين .

** وأصحاب الحلف الجرهمى هم :

١ ـ الفضل بن فضالة : وكان من الجراهمة العارفين للبيت الحرام قد سيته .

٢ ـ الفضل بن وداعة : وكان من الجراهمة العارفين للمظلوم حفظ كل حقوقه .

٣ ـ الفضل بن قضاعة : وكان جرهميا خاف على قومه من غضب الله .

ولم يقتصر الاجتماع للحلف على هؤلاء النفر ، بل ان هنالك قبائل اتبعوهم . وكان الفضول هم أصحاب الدعوة اليه . لذا نسب اليهم . ولما كان الاجتماع مهما وقد حضره كثير من أفاضل القوم أطلق عليهم جميعا أصحاب " حلف الفضول "

نصوص حلف الفضول الجرهمى :-

١ ـ نصرة المظلوم سواء كان من أهل الديار ، أو غريبا فى جوار أحد أو لا جوار له .

٢ ـ رد المظالم الى أهلها ، ولو كلفهم ذلك تحمل عناء البحث عنهم ومكابدة

مشقته ، وتحمل تبعاتـــه ٠

٣ ـ محاولة ايقاف نيران الحرب التى يكون التهور القبلى ، والاندفـــاع الفردى سببا لهـا ٠

٤ ـ تعميق ما للبيت العتيق من قدسية ، لدى الشباب الذى لم يعايش محنة البحث عن ماء ، ولم يكابد قسـوة الحرمـا ن ٠

٥ ـ استمرار العمل على تغطية نفقات البيت ، واجارة كل مرتـاد لـه ٠

الا أن هذه النصوص ، لم تؤخذ بالحذر الكافى ، فلم تقابل من الجراهمة الا بالنكوص ولم تلق منهم الا العناد والمكابرة ، كما أن أصحاب الحلف ، لم تكن لديهم سلطة التنفيذ ٠ من هنا فقدت القرارات قيمتها ، وصارت كعملـــة لامصـــرف لهـا ٠

وحقت على الجراهمة الكلمة ، وحاقت بهم اللعنة ، فأدخلوا فى حروب سيادة انتهت بهم الى الهجرة من مكة الى أرض لم يألفوها ٠ ولم يعد لهم الحق فـى زيارة البيت ولا الطواف به ، مما حدا بشعرائهم أن يصوروا تلك المحنة ، وأن يرسموا صورة باكية لهذا الهوان ٠وان كان حلف الفضول الجرهمـى قد أفـاد أممـا فـى آتـى الزمـان ٠

لذا نرى أن " التاريخ عرض الانسانية ٠ وخط سيرها ٠ وسلوكها فـــى حياتها ووجودها وتقلبها فى درجات الوجود ٠ ومراحلـه طورا بعد طور ، وجيلا بعد جيل ، وبمقدار ما يحوز الانسان من معرفة هذا التاريخ وأطواره ، يكـــون قد أضاف الى وجوده وجودا ، والى حياته حيـــاه ٠

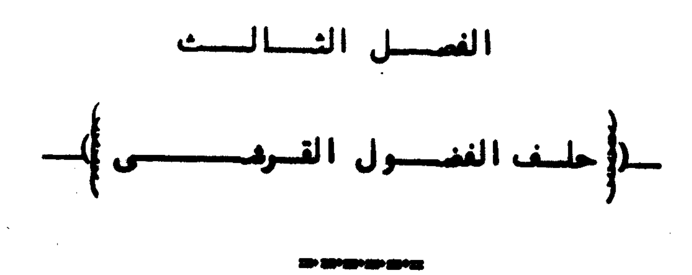
ومن وعى التاريخ فى صـدره ٠٠ أضاف أعمارا الى عمـره "(١)

ويعيد التاريخ نفسه ، وتتكرر فصوله ، فتدور عجلته ، ويواجهنا حلـــف ،

(١) د ٠ عبد الغنى عوض الراجحى : محاضرات فى التاريخ والسيرة النبوية ٠

فضول آخر بعد قرون عديدة من الزمان حيث كان حلف الفضول الجرهمى فى الزمن الأول للجزيرة العربية وقبل الميلاد بكثير • أما حلف الفضول الذى نحن بصدده فكان فى القرن السادس الميلادى • ولا شك أن بينهما حقبة من الزمان لاجدال أنها طويلة جدا •

وكما أن الحلف الجرهمى كانت له دوافعه وأسبابه فان الحلف القرشى كذلك كانت له أسبابه وأحاطت به ظروف وملابسات عديدة • مما يجعلنا نفرد للحديث عنه عددا من الصفحات نوضحه فيها ونستلهم من الزمان مايخبئه • ودونك الحديث عن حلف الفضول القرشى •



الفصل الثالث

(حلف الفضول القرشي)

حلف الفضول القرشى

تمهيـــد :

تعددت أحلاف العرب واشتهرت ، منذ انعقاد حلف الفضول الجرهمى حتى القرن السادس الميلادى اذ جدت حوادث ، واقتضى الأمر عقد حلف أشبه ما يكون بحلف الفضول الجرهمى ، من هنا سُمّىَ بحلف الفضول قال صاحب الروض الأنف : " فلما أشبه حلف قريش الآخر ، فِعْلَ هؤلاء الجرهميين سمى حلف الفضول " (١) . وقال ابن هشام عن الحلف القرشى ، انه احياء لما مضى لكن هذا الحلف فى المقام الحالى ، قد جاء فى القرن السادس الميلادى وبالتحديد فى سنة ٥٩٠م . ومن هنا نتعرض الآن للنقاط التاليـــات :

أولا : أسبابـــه :-

أ : حادثـة الفيـــل :

وقعت حوادث عدة فى الجزيرة العربية ، كان كل حادث يهزها بعنف ، ويدوى فى كل جنباتها برعده ، وكللت تلك الحوادث ، بحادثة الفيل ، التى كانت من عدو مغيره ، وجيش يخالفهم فى الدين . ولم يعرف العرب حجم المأساة ، الا بعد أن وقفوا حيارى عاجزين ، أمام جحافل أبرهة ولم ينقذهم من ذلك الا قدر الله ، الذى بثه فيهم ارهاصا بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورأوا أنهم فى حاجة الى تحالف قوى ، به يصونون أرضهم ، وفيه تذوب خلافاتهم ، ولم يتم لهم ذلك ، لظنهم أن الدرس الذى أنزله الله بالحبش فيه الكفاية لكل من تسول له طويته الولوج الى البيت الحرام أو الاعتداء على حماته . هذا على المستوى الخارجى

(١) الروض الأنف : جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦

ب ــ حلف المطيبين :

وقعت بين القبائل العربية خلافات لكنها لم تصل الى حد الصدام المسلح الا حين انقسمت قريش ذاتها الى فريقين • وتهيأ كل فريق للتخلص من الآخر عن طريق الصراع الدموى ، الذى يفصل فيه بحد السيف ونصله والنقع المثار والخيل والابل والبغال • وما ذلك الا ليحصل أحد طرفي الخصومة ، أبناء العمومة على إمارة مكة •

وقد " عقد كل فريق حلفا مؤكدا على التعاون ، وأخرجت أم حكيم بنت عبد المطلب جفنة مملوءة طيبا لبني عبد مناف ومسحت بها رؤس الرجال فتحالفوا على :

١ ــ ألا يتخاذلوا •

٢ ــ ألا يسلم بعضهم بعضا • " (١)

وسمى هذا الفريق باسم المطيبين •

فى الوقت ذاته تعاهد أولاد عمومتهم ، الذين هم خصومهم ، بنو عبد الدار ومعهم من يناصرهم ، وتحالفوا عند الكعبة حلفا مؤكدا ، وسموا بالأحلاف وكادت الريح أن تحمل شرارة البدء ، الا أن الله ألهم الطرفين العودة الى المحافظة على البيت وحرمته وتصالحوا على اقتسام مظاهر الامارة ، بحيث يرتضى كلا الطرفين •

وكانت النهاية لهذه الأحلاف ، اشاعة جو من العناد ، واتاحة الفرصة للخلاف مرة أخرى والحقد الداخلى من القبائل القرشية ، على أبناء قصى كلهم • مما جعلهم فرصة سهلة لطمع العدو والخارجى ، وضعف السلطان الداخلى ، مما استوجب عقد حلف الفضول القرشى •

---

(١) الدكتور/ محمود محمد زيادة : العرب وظهور الاسلام ص ١١٢ ــ ١١٣ الطبعة الأولى •

يقول صاحب الروض الأنف : " ما يؤيد حلف الفضول . أن العرب قبله كانت قد انقسمت على نفسها . فعقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا . على ألا يتخاذلوا . ولا يسلم بعضهم بعضا ما بل بحر صوفة (١) " .

جـ — حرب الفجار :

لم تهدأ الجزيرة العربية ، وإن كان الهدوء قد ساد القبائل القرشية لأنه لما ان خمد تراب جيش أبرهة ، ولملمت الجزيرة أطرافها ، ولم تمض سنوات تجاوز ربع القرن ، حتى انفجرت حرب ضروس ، استمرت سنوات طوال . جف فيها الضرع . وهلك الزرع ، وشاب الوليد ، وانتهكت فيها قدسية الأشهر الحرم . واليك التكييف التاريخي والاجتماعي لتلك الحرب .

سميت بحرب الفجار . لأنها وقعت في الأشهر الحرم عند العرب . وكان القتال محرما فيها لقدسيتها . ولا يجوز القتال فيها مهما كانت الدوافع وتلك الأشهر هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ورجب الفرد . ولما كانت الحرب قد نشبت فيها لذا سميت الحرب فجارا . لأنها فجرت فأضاعت حرمة الأشهر . وقتلت في العرب احترامهم لها ومحافظتهم عليها (٢) . وقد وقعت بين قبيلة هوازن وأتباعها من ناحية . وكنانة وأنصارها من ناحية أخرى . وكلتيهما من قبائل العرب المعروفة . وان كانت أسبابها الرئيسية غير واضحة المعالم ، لكن السبب الظاهري هو الذي يعتمد عليه في التكييف التاريخي والاجتماعي .

دوافعها :

١ — قتل البراض الكناني لعروة الرحال الهوازني :—

(١) الروض الأنف : جـ١ ص ١٥٣

(٢) وكان اتفاقهم على الا يقع في الأشهر الحرم بغي ولافساد ، وأن تكون أمنا وسلاما يصلح الناس فيها أحوالهم ، ويتعهدون شئونهم ، دون خوف من غادر أو وجل من مباغتة شقي .



يعتبر قتل البراض بن قيس الكنانى ، لعروة الرحال بن عتبة الهوازنى فى هذه الأشهر الحرم ، دون مراعاة لحرمة هذه الأشهر ، وقد سبقها هو أحد الدوافع لاشعال حرب الفجار ، وحتى لانكون مغالين سنضع القضية برمتها ، ولعلك تنتزع منها ما تـــراه .

القضيـــــة :

اعتاد النعمان بن المنذر [1] أن يرسل قافلة الى عكاظ ، تحمل التجارة النفيسة ، لتباع فى عكاظ وتعود محملة بالجلود وأنسجة اليمن المزركشة . وغيرها من البضائع التى يجد مستوردا لها فى الحيرة . فتعود عليه بالنفع الكبير والمال الوفير . وكان يختار لهذه القافلة حارسا متمرسا يجيد الكر والفر ، ويحسن رعاية القافلة ، بحكم ما يتمتع به من مهارة عالية ، وكفاءة فائقة فى القتال مقابل أجر مال يتناسب مع حجم البضاعة وقيمتها ، والوقت الذى يلتزم بــه .

وقد اعتاد أصحاب هذه الخبرة ، أن يعرضوا أنفسهم على أصحاب القوافــل وكان التنافس بينهم شديدا ، لدرجة أن كل واحد منهم كان يبذل قصارى جهده لينال رضى صاحب القافلة ويُعرف فى سوق العرض والطلب ، كواحد له خبرة فى هذا الميدان . ومثل المنذر يجد الاقبال عليه أكثر من غـيره .

وحدث أن جاء " عروة الرحال بن عتبة " من قبيلة هوازن الى المنذر ليعرض عليه رغبته فى حراسة القافلة ، وفى نفس الوقت جاء البراض بن قيس من قبيلـــة كنانة ، لباب المنذر ولنفس الغرض ، مصاحبة القافلة ، وحراستها وتأمين عودتهـا وسلامتهـا .

واختار النعمان " عروة " نظرا لما استشعره فيه من مزايا جعلته يختاره ويفضله على البراض وقانون العرض والطلب ، فى صالح النعمان ، من هنا نفس البراض على

(١) كان النعمان بن المنذر ملكا فى دياره وقومه . وقد رضى أهله به ملكا عليهــم دون منـــازع .

وحده

عروة وحسده وأزعجه وراح يحقد عليه . ويضمر له الشر ، حتى فكر في التخلص منه ، بسبق الاصرار والترصد ، دون مراعاة لحرمة الدم . ويبدو أن البراض كانت لديه ظروف غير ما ذكره رجال السير . وأن خلفية من الظلال الكثيفة كانت تحيط به وتحوطه . خاصة وأنه من قبيلة أخرى .

وبدأت القافلة المسير في الأشهر الحرم (١) . يحرسها عروة الرحال الهوازني وكان البراض قد اختفى بالخيرة متربصا بالقافلة وعروة . حتى اذا دلفت الى حيث موطن الخوف ، وكان البراض يتبعها بعد أن علم بموعد سفرها فاذا به يغافل عروة ويثب عليه والقافلة ، فيقتله ويسرق القافلة ، وما تزال الأشهر الحرم تغطي الجزيرة كلها وتغشاها من أولها الى آخرها .

وبلغ هوازن النبأ . وهي قبيلة عروة المقتول في الأشهر الحرم ، فلم يجد أهلها بدا من السير الى قبيلة البراض " كنانة " للمطالبة بالثأر ، والأخذ بالدم الذي أريق في الحُرُم ، مُحاوِلَةً استرداد شرف القبيلة الذي لطخه بالدم البراض ابن قيس .

ويبدو أن الكنانيين قد بلغتهم أخبار تفيد غزو الهوازنيين اليهم ، دون أن تحمل لهم نبأ الجريمة البشعة التي ارتكبها البراض ابن قبيلتهم ضد عروة الهوازني من هنا تهيأوا للدفاع واعتبروا الأمر بمثابة اعتداء على حقوقهم . فنهضوا يواجهون هوازن جيشا بجيش وخيلا بخيل ، وحربا بحرب ، ولم تكن العقول مهيأة للتفاوض أو التفكير في غير الحرب فراحت أصوات العقلاء سدى . وانطلقت شرارة الحرب تغذيها الدماء والأموال وفلذات الأكباد والرجال .

---

(١) يختلف المؤرخون في بداية الحرب الفجارية . فابن هشام يقول انها في شعبان والسهيلي يقول بالأشهر الحرم مطلقا ، ولا شك أن شعبان ليس من الأشهر الحرم . والجواب عندي : أنها وقعت في آخر شهر رجب الفرد . وهو من الأشهر الحرم ، وانتهت في ذي القعدة مرورا بالسنوات الأربع . وعقبها انعقد حلف الفضول القرشي .

ولم تكن الأشهر الحرم قد انقضت ، ويبدو أن هناك أسبابا حقيقية لهذه الحرب ، التي لما أن قتل فيها عروة حتى اشتعلت وفى كل مكان من قبيلتى كنانة وهوازن ، بل والجزيرة العربية كلها . ويميل أميل الى أن هنالك مناوشات قد وقعت ، وخلافات قد اتسعت ، ولم تفلح المفاوضات ، وذلك فى الجزيرة العربية حَدَثٌ وقع مثله الكثير . الا أن مقتل عروة كان القشة التى قصمت ظهر البعير . ونعود للدوافع .

٢ — انتهاك ما للأشهر الحرم من حرمة وقدسية :—

وهذا وحده من الأسباب التى كانت كافية لاشعال نار الحرب بين فريقين كلاهما يتربص بالآخر ، وينتظر له الهفوات ، ويعاقبه على أبسط الأخطاء ، فضلا عن أنه يفتح باب الهوان لكل من تسول له نفسه بالتعدى على الأشهر وحرمتها .

٣ — عدم الاكتراث بشرف القبيلة الهوازنية :—

وكم اسْتُعِرت نار الحرب لهذا الغرض . ولو كان بسبب الاعتداء على ناقة كحرب داحس والغبراء وحرب البسوس وغيرها . أو بسبب مقتل كلب أو الاستيلاء على ناقة أو التنافس على الفوز بفتاة فما بالك بدم رجل يحمل شرف قبيلة هوازن كلها . وقاتله لم يرع فيه شرف قبيلة ولا حرمة أشهر حرم .

٤ — التعصب البغيض والحقد الشديد :—

فلو أن عروة كان من قبيلة البراض . ما حدث هذا القتل ولولا أن البراض — استهان بقبيلة عروة . وتعصب لشخصه ومسلك قبيلته ما قام بفعلته الشنعاء ولولا هذا التعصب لنفض الكنانيون أيديهم عن البراض باعتباره قاتلا ، وأخلوا بينه وأهل عروة فينالون منه جزاء ما صنع ، من قتل لعروة ، واعتداء عليه ، وسفك لدمه فى الأشهر الحرم (١) .

---

(١) د . جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ص ١٠٧ وما بعدها .

بداية حـرب الفجـار :

ومع مطالع عام ٥٩٥ ميلادية اندلعت نار الحرب، مؤذنة بخراب جديـد، وهلك سادة وعبيد، وانضمت قريش لكنانة وجمعت لها كل مال وعتاد ورجال، وهوازن كذلك. وقد استمرت الحرب متقاطعـة أربع سنـوات (١) .وقد اشترك الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الحرب حيث انضم أعمامه الى كنانة، وكـان لم يبعث بعد . فانضم للقتال بجانب قبيلة كنانة، حليف بنى عمومتـه .

وكان يجمع السهام التى تقع على أعمامه من هوازن ليردها أعمامه فى نحـور خصومهم فى رواية. وفى رواية أخرى . أنه صلى الله عليه وسلم. اشـترك اشتراكا فعليا فرمى النبال بنفسه . وفى رأينا أنه لاتنافى بين الروايتين لأن الحـرب استمرت أربع سنـوات (٢) .

وبالرغم من أن الحرب عادة تنتهى بغالب ومغلوب، بيد أنها فى حرب الفجار خالفت تلك العادة .ومع أنها استمرت تلك السنوات، وكلما خبت زادت سعيرا، فلم تكن الخسائر فيها محصورة. بل سقط فيها الرجال بكثرة . وضاعت الأمـوال المتدفقة. ومال الميزان القبلى بالكلية . وشعر العرب جميعا بحاجتهم الـى صلح ينهى تلك الحرب، وحلف تخضع أمام نصوصه كل الاستعدادات العسكرية، والعمليـات الحربيـة .

يقول الشيخ محمد الغزالى : " كانت حرب الفجار بالنسبة لقريش دفاعا عـن قداسة الأشهر الحرم ... وتلك ولاشك من أرقى مظاهر النضج العقلى . حـين يضعون قوانين يلتزمون بها تجاه أنفسهم وديتهم .. مكانة أرض الحرم . وهذه الشعائر بقية مما احترمه العرب وعظموه من دين ابراهيم عليه السلام، وكـان احترامها مصدر نفع كبير لهم، وضمانا لانتظام مصالحهم وهدوء عداواتهم. وكان الرجل يلقى قاتل أبيه خلالها وفيها فيحجزه عن ادراك ثأره شعوره بهـذه

(١) الشيخ محمد الغزالى فقه السيرة ص ٦٥ من شعبان حتى ذى القعـدة مـدة أربع سنـوات . (٢) د . محمود محمد زيادة العرب وظهور الاسلام ص : ١٤٥



الحرمات . من الأشهر والمكان . وقد جاء الاسلام بعد . فأقر هذه المكانة الموروثة عن ديانة ابراهيم عليه السلام . وكانت حرب الفجار من آثار هـــذه الاستباحية الجائرة (١) " وقد انتهت حرب الفجار بصلح بين القبائل عرف باسم حلف الفضـــول .

الحكـم فـى القضيـــة :

من خلال عرضنا للقضية وسير الدعوى . رأينا أن حلف الفضول كان حتميـــا لنهاية حرب الفجار ، وأن حرب الفجار كانت حتمية لنهاية عصر من الاضطراب ساد شبه الجزيرة العربية ، بداه الصعاليك واستثمره المنهوذون ، وأن نهاية حـــرب الفجار فتقت فى الفكر الجاهلى نوابغه الاجتماعيـــة .

وقد كانت نهاية حرب الفجار من أبرز المعالم الاجتماعية فى العصر الجاهلى والمجتمع القبلى على السواء . وان كان بشكل خاص ، الا أن أظفارها انحفرت فى حنايا المجتمع الانسانى كله بشكل عام . ومن ثم نشتم منها رائحة ذكية لقوانـين اجتماعية . وعبادات دينية . عرفها الانسان الجاهلى قبل أن يعرفـها أصحاب المدنية الحديثة بقرون طوال .

بل ان العقل الأوربى الحديث يقف مشدوها حيال مايطالعه من آثار تركهـا العقل العربى الجاهلى ، وبعد اثبت التاريخ نسبتها اليه . وأنها من أعظم الأفكار والاصطلاحات الاجتماعية والسياسية والدينية على الســواء .

وأن حلف الفضول كان بعد أن " شعرت قريش بأن ما أصابها فى حـــرب الفجار انما هو نتيجة تفرق الكلمة . وعدم نصرة الحق . فاجتمعوا فى دار " عبد الله بن جدعان " وتعاهدوا أن يكونوا مع المظلوم حتى يُؤَدَّى اليه حقـــه مابل بحر صوفـه (٢) " .

---

(١) الشيخ / محمد الغزالى : فقه السيرة ص ٦٥ بتصرف يسير .
(٢) الدكتور / محمود محمد زيادة : العرب وظهور الاسلام ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

ومهما يكن من أمر حرب الفجار . فانها بما خلفته من ورائها ، باستمرار الحروب لسنوات طوال ، وفقدان الرجال والأموال ، كانت كفيلة بوضع البذور الأولى لعلم الاجتماع بمعنناه الدقيق ، فى مجتمع جاهلى ، لغة الحوار فيه الحرب ، وسلاحها السيف والنصل والخيل والعتاد والرجال واذا اعتبرت سببا لحلف الفضول من خلال نتائج الحرب وما كان لها من قوانين وقواعد وقرارات ، وما انتهى اليه حلف الفضول من نتائج عملية ، فان الذى لاشك فيه أنها قدمت مادة طيبة ، وصورة مثلى لعلم الاجتماع ، الذى شاد بناءه علماء العصر الحديث . والمعاصر على السواء .

د ـ قصة الزبيدى :

ومفاد هذه القصة : " أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص ابن وائل . وكان ـ العاص ـ من أهل الشرف والقدر بمكة . فحبس عنه حقه ولكن الزبيدى طالب العاص وألح عليه فى الطلب ، فلما لم يجد بدا من هذه الأمور . اضطر الزبيدى أن يستعدى الأحلاف على العاص . فاستعدى عبد الدار ومخزوما وجمح وسهما وعدى بن كعب . فأبوا أن يعينوه على العاص وانتهروه . فلما رأى الزبيدى الشر . رقى على ـ جبل ـ أبى قبيس عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم عند الكعبة . ونادى بأعلى صوته مستنجدا طالبا النجدة . ليأخذ حقه من العاص ـ على عادة الناس فى ذلك العهد ـ طالبا من الجمهور احقاقه حقه . والأخذ بناصره . فقام الزبير بن عبد المطلب عم النبى فدعا القوم الى دار عبد الله بن جدعان . فكان من اجتماعهم عقد ذلك الحلف (١) " .

ويسوق الشيخ محمد الغزالى رواية أخرى فيقول : " وقيل فى سبب الحلف أن رجلا من بنى زبيد أتى بتجارة فاشتراها العاص بن وائل السهمى . ثم حبس

(١) السيرة الحلبية : جـ١ ص ١٥٦

حقها . وأبى أن يدفعه . فاستعدى عليه قبائل قريش وأحلافها فلم يكترثوا له فوقف الغريب المظلوم عند الكعبة . وأنشد :—

يا آل فهر لمظلوم بضاعته .·. ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته .·. يا للرجال وبين الحِجْرِ والحَجَرِ
ان الحرام لمن تمت كرامته .·. ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

فقام الزبير بن عبد المطلب . وقال ما لهذا مترك . فاجتمع الذين ذكرهم ابن الأثير آنفا وهم بنو هاشم . وبنو عبد المطلب . وبنو سعد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وذهبوا الى العاص . واستخلصوا منه حق الزبيدى بعد ما أبرموا حلف الفضول[1] الذى ألزمهم برد الحق لصاحبه .

" ويظهر أن العاصى هذا رجل مماطل سمج فهو صاحب القصة كذلك مع خباب بن الأرت وكان خباب قينا فصنع سيفا للعاصى . وأتاه به لينقده ثمنه . فقال له العاصى لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فقال له خباب لا أكفر حتى يميتك الله . ثم تبعث . قال العاصى أَوإنى لميت ثم مبعوث ؟ قال : بلى .

قال العاصى : دعنى حتى أموت . وأبعث فسأوتى مالا وولدا فأقضيك حق السيف فنزلت الآيات :—

" أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا [2] " .

وأمثال العاصى هذا فى ميدان التجارة والسياسة كثير . ومحمد أولى الناس

---

(١) الشيخ / محمد الغزالى : فقه السيرة ص ٦٦

(٢) سورة مريم : الآيات ٧٧ — ٨٠

بخصومتهم . وأولى الناس بمحمد صلى الله عليه وسلم . من أعان عليهم . وواثق على حربهم [1] " .

وقد نزلت هذه الآيات فى العاصى وأمثاله . قال صاحب تفسير النسفى :

" نزلت فى العاصى بن وائل .. وأن خبابا صنع له حليا وحين طلب الأجر فقال العاصى : انكم تزعمون أنكم تبعثون . وأن فى الجنة ذهبا وفضة . فأنا أقضيك . ثم فانى أوتى مالا وولدا [2] " .

ومهما يكن من أمر . فان الزبيدى وقصته كانا سببا من أسباب حلف الفضول .

وهناك من يميل الى أن صاحب القصة هو الوليد بن المغيرة من قريش . وصاحب التجارة رجل غريب . ولكن المشهور . أنها مع العاصى [3] " ، وسواء كانت باسم الوليد أو العاصى أو غيرهما ، لكنها فى قريش لم تبرحها ، وفى مكة لم تجاوزها ، وكانت فرصة لعقد حلف الفضول ، لاسترداد الحق السليب ، ودفع نار الحرب التى يمكن أن تهب عليهم من جديد .

من هنا ندرك أن الأحلاف عند العرب فى الجاهلية ، وقبل حلف الفضول كانت معروفة وظلت لهجة الحرب ولغته يدفعان اليها ، كما أن الاحساس بالاضطراب والحاجة الى الأمن والشعور المتزايد بالخلل الاجتماعى يؤكد على الرغبة الملحة فى الأحلاف وانعقادها واحترام نصوصها ، والالتزام بما فيها ولايخلو من ذلك زمان أو قوم ، كما لاتغيب عن أى مجتمع . فى أى بقعة من الأرض .

" فالانسانية كل لايتجزأ . والانسانية الناضجة الواعية ، يجب أن تعيش فى حياتها ثلاثة أبعاد . الماضى ، والحاضر والمستقبل . والأبعاد الثلاثة

---

(١) فقه السيرة : ص ٦٥ — ٦٧

(٢) تفسير النسفى : جـ٣ ط الحلبى ص ٤٤

(٣) تفسير الفتوحات الالهية بتوضيح الجلالين : جـ٣ ص ٧٦ ، ٧٧

شديدة الارتباط بعضها ببعض لاغنى لأحدهما عن الآخر. فالحاضر امتداد للماضي والمستقبل امتداد للحاضر، وليس التاريخ حكايات تروى ولا حوادث تسرد. ولكنه فن له أصوله وقواعده المتصلة بالعمران البشرى وقوانينه والاجتماع الانسانى وسننه، وما يتصل بذلك من العوارض والمقدمات والنتائج المتعلقة بحياة الأفراد والأمم والجماعات تأثرا وتأثيرا [1] ".

وتأثير الانسان الجاهلى فى بيئته واضح بدرجة كبيرة، كما أن استقلال العرب الجاهليين بطباعهم وفرط حبهم والولاء لقبائلهم بمثل هذه الدرجة ما يجعل الدراسة تتجه اليهم بنوع من الحذر، وكثير من الحيطة.

الأسباب فى الميزان :

يختلف الدارسون لحلف الفضول حول هذه الأسباب، وماذا كانت هى السبب الرئيسى من عدمه وكل يرجح وجهة نظره، وبالبحث لاحظنا أن أغلبها سلّم بالنقل ولم يدقق فيما ينقل كثيرا.

ونبدأ بقصة الزبيدى أو الغريب، مع العاص أو الوليد.

أولا : لو أن رد الحق للزبيدى من العاص هو السبب لكان يكفى فيه عودة الحق الى صاحبه وفقط. ولما كان العرب فى حاجة الى عقد حلف يكلفهم الكثير والكثير. يدعو اليه من يدعو. ويجيب دعواه من يجيب.

ثانيا : لم يكن رد الحق وحده فى حاجة الى اجتماع عام، يجتمع فيه زعماء القبائل ورؤساء العشائر. والمعروف أن مثل هذه الاجتماعات الرسمية، لاتكون الا لأسباب تحتاج الى قرار كبير، كالحرب مثلا، وتكون لها الأولوية فى الدراسة.

ثالثا : ان هذه الاجتماعات على ذلك المستوى لاتتم الا اذا سيّر العدو اليهم جيوشه أو على خصم على الاضرار بدينهم. أما حادثة كهذه. فلم تكن بحاجة الى مثل هذا الاجتماع لأنها حادثة فردية. وحجمها ضئيل جدا. وبالرغم من

(1) الدكتور/عبدالغنى عوض الراجحى : محاضرات فى التاريخ والسيرة" ط ١ "

هذا نلاحظ أن أغلب الباحثين يجمعون على أنها السبب الرئيسي لحلف الفضول . ولعلي لا أتفق معهم لأمور منها :—

أ — أن حوادث التاريخ لايكفي فيها النقل ، انما التوثيق وصحة الانتساب ، وكل ما مر ذكره ليس موثقا . ولايقبل المواجهة .

ب — أن المسافر الذي أخذت تجارته ، لايمكنه الانتظار حتى ينعقد الحلف وترد اليه أمواله على فرض الانتظار . رغم أنها ضالته وحقوق له . وكان الأيسر له أن يعود الى قبيلته يستصرخ أهلها ويستعديهم حتى يرد اليه حقه بقوة السيف والسنان .

جـ — تؤكد الروايات أنه بمجرد سلب العاصي لحق الرجل الزبيدي اذا بالزبيدي يصرخ فيخرج اليه زعماء مكة . وهذا يدلنا على أن الحلف كان في حالة انعقاد . أو شبه انعقاد . لأنه لايعقل أن يستجيب الزعماء لمجرد سماع صوت لغريب لايجاوز أقرب بطن من بطون قريش فضلا عن مكة كلها فيأتون اليه ويعقدون اجتماعا ، تتخذ فيه قرارات صعبة كحلف الفضول مثلا .

د — لعل أقرب مايكون الى الحقيقة أن الزعماء كانوا في حالة انعقاد لحلفهم لأسباب كثيرة منها حادثة الفيل ، والمطيبين وغيرها . وأن الزبيدي حين استلب العاصي منه تجارته . ولم تجد الحيلة معه في استرداد حقه . سأل عن أفاضل القوم وزعمائه . فأخبر أنهم مجتمعون بدار عبدالله بن جدعان . فراح اليها ووقف ببابها ونادى بحاجته فخرجوا اليه ولما علموها ضموها الى جدول أعمالهم واتخذوا فيها قرارهم . وليست وحدها هي السبب أو الأصل لما تقدم .



هـ — غالبا ما كانت تقع حالات سلب ونهب وقتل واعتداء جماعية أو فردية بينهم . وربما كان أحد الأطراف نائي الدار ولم يذكر التاريخ أن القوم اجتمعوا لها . أو عقدوا بشأنها عقدا ، أو جمعوا حلفا وهذا يؤكد

لما ذهبنا اليه من نتائج . وأن حادثة الزبيدى ربما كانت نهاية المطاف وصبغت قرارات الحلف بالشمول والعموم .

ومن الغريب أن بعضا من أساتذة التاريخ فى العصر الحديث، يغفلون حق هذه الناحية من الدراسة ويؤكدون على أن حلف الفضول سببه حادثة الزبيدى . ولو أنهم أضافوا الى التعبير حرف الجر لنجوا من تلك السقطة فلو قالوا وكانت حادثة الزبيدى من أسباب حلف الفضول لكفى أما انهم قد جعلوها البطل، فقد ظلموا العقل العربى، وطعنوه فى امكانياته بما لا يرتاح معه العقل الناضج، ولا تطمئن اليه النفس الهادئة .ولا يستقر تطوافه عند شاطئ الأمان . ولا يختلف فى ذلك رجال العصر الأول أو رجال القرن الحالى من المؤرخين الذين تناولوا حلف الفضول بالمعالجة .

من هنا نجد فى المعاصرين من يقول : " أما حلف الفضول فسببه أن قريشا قد أفزعها ما جرى لغريب اشترى العاص بن وائل تجارته . ثم لم يدفع له حقها فوقف الغريب عند الكعبة وأنشد شعرا :

يا آل بيت لمظلوم بضاعته ∴ ببطن مكة نائى الدار والنفر

فقام اليه الزبير بن عبد المطلب مع نفر من رجالات قريش، وصحبه الى بيت العاص ابن وائل فأنصفوه منه . ثم تجمع الكثير من سادة قريش وتعاقدوا ... الخ[1] "

وصاحب الروض الأنف يقول : " سببه أن رجلا من زبيد ... القصة .... ثم يقول وتحالفوا فى ذى الحجة فى شهر حرام قياما . فتعاقدوا . وتعاهدوا بالله ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم . حتى يؤدى اليه حقه ما بل بحر صوفه، وما رسى حراء وثبير مكانهما وعلى الناس فى المعاش . فسمت قريش ذلك الحلف — حلف الفضول — وقالوا لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر

---

(١) الدكتور/ عبد المقصود نصار وآخرون : السيرة النبوية ص ٤٨ .

ثم مشوا الى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى . فدفعوهـا اليـه "(1) .

وعلى هذا جرى المؤرخون القدامى والمعاصرون ، ولست أدرى ما السبب ولكن النهاية الأصيلة لهذه الدراسة وتلك المصادر تؤكد غير ذلك . وتدلل على غيره بكل يقين ووضوح .

نتائج حتميـة

يظهر من دراسة الأصول القديمة والروايات الحديثة لحلف الفضول أن الدافع اليه والمحرك له . ليست قصة الزبيدى . ولا الفجار أو المطيبين . وانما هو الحاجة الملحة فى الجزيرة العربية كلها على وجه العموم . وفى مكة على الخصوص الى الأمن والاستقرار ، بعد الحروب الطويلة والحوادث الجسام ، التى هزت أرجاء الجزيرة ، وأقضت مضاجع مرتادى الحرم . وهددت طرق التجارة .

من هنا هبت قريش برجالها فى ثورة عارمة لاحلال الأمن بدل الخوف . واشاعة الاستقرار مكان الفوضى ، ولم يكن فى القوم سمح الوجه ، كثير الوارد سوى عبدالله بن جدعان كما كانت داره على مقربة من الحرم . فهرعوا اليـه وعقدوا اجتماعهم عنده ، وتناولوا موضوعات عدة ، تؤدى كلها الـى احلال الأمن والسلام فى مكة ، وكان ابن جدعان مسموع الكلمة ، ميسور الحال وكان شخصا قياديا . فلا مانع من أن يكون هو الداعى للحلف ، وهو الذى تزعم الدعوة له ، وتحمل تكاليف الوفود ، ولم ينوء كاهله بنفقات الأعضاء .

وتناولوا حياة أهل مكة ودخولهم . وأثر الوافدين فى انتعاش حياتهم كما تناولوا الجانب السلبى من عدم الاستقرار . ورأوا أنه سيضر بأهل مكـة وتجارتهم ، ويخل بمركزهم الدينى والاجتماعى فى أنحاء الجزيرة العربيـة

(1) الروض الأنف : جـ1 ص 156 .

ويهدد أمنهم كله . كما يعرض تجارتهم للكساد ، وكان كل اعتمادهم عليهـــا ،

** ان اقحام اسم الزبير بن عبد المطلب . أو العباس أو أبي سفيان بن حرب . أو غيرهم . أم غير مسلم . كما أنه يشير الى وجود غايات سياسيـــة . ودوافع قبلية ، هي أقرب تفسيرا للحالة العنيفة التي كانت تعيش في رحاب بني أمية وبني عبد مناف . والتي عبر عنها أبـو سفيان في أول عهد النبوة حـين قال : كنا وبني عبد مناف كفرسي رهان . والله لا نؤمن بمحمد حتى يأتـــي رسول منـــا .

ولعل ما نسب الى أبي جهل — عمرو بن هشام — ما فيه الكفاية . " فعـن أبي يزيد المدني أن النبي صلى الله عليه وسلم . لقي أبا جهل فصافحه فقال له رجل : أتصافح هذا الصابئ ؟ فقال : والله اني لأعلم انه لنبي . ولكن مـتى كنا لبني عبد مناف تبعا ؟ (1) " فهذا يؤكد على أن اقحام الأسماء له غـــرض سياسي . وليست تلك الرواية فحسب .

فقد روى : " أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرنـــي عن محمد أصادق هو أم كاذب . فانه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : واللـه ان محمدا الصادق . وما كذب قط . ولكن اذا ذهب بنو قصي باللواء والسقايـة والنبوة . فماذا يكون لسائر قريش (2) " .

من هنا فاننا نرفض الزج بالأسماء في مثل تلك المواقف على العموم ، وفي النواحي الأساسية على الخصوص وأنني أشد ميلا الى أن هذه الأسماء لـــم تدخل الى ذلك الموقف ، الا بيد الرواة وأقلامهم . وفي عهد بني أمية علـى الخصوص . وفي أيام العباسيين استمر هذا الاتجاه ، وكلما برزت أهمية حلف

(1) تفسير ابن كثير : جـ٢ ص ١٣٠ .
(2) تفسير الكشاف : جـ٢ ص ١٨ .

الفضول ومكانته ، حاول بنوأمية والعباسيون ، ادخال شخصيات منهم فيه ، حتى يواجهوا خصومهم بأن لأجدادهم أصلاً في السياسة والقيادة . لعلهم ينالون غرضا فوق امكانياتهم .

وقد بذلوا جميعا في ذلك المُنْهَجَ " لما لحلف الفضول من أهمية ومكانة ولما في اقحام هذه الأسماء في ذلك الحلف من أهمية في سياسة عالم ذلك الوقت (١) " وما يمكن أن يسلم به الباحث هو أن حالات الأمن والاستقرار والتجارة كلها كانت السبب في عقد حلف الفضول .

حقا " كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به ، وأشرفه عند العرب (٢) " قبل الاسلام وقد تأكد لنا أن قصة الزبيدى ليست وحدها هى السبب لانعقاده . وهو الذى انتهينا منه آنفا . ويبقى سؤال هو : هل سبب انعقاده . حرب الفجار ؟ أم حادثة الفيل ؟ أو حلف المطيبين ؟ .

والجواب :ـ أن حادثة الفيل ليست هى السبب الوحيد ، لأن الحلف انعقد بعدها بعشرين سنة تقريبا ولا يعقل أن يستغرق الاعداد لمثل هذا الحلف ، كل تلك السنوات ، والا لكانت العقلية العربية ، متخلفة لأبعد حد ، اذ كيف يستغرق اعداد القوم للدفاع عن النفس ، أياما قلائل يتم فيها حشد الرجال والعتاد وجمع المال ، بما يمكنهم من صد العدوان ، وربط المبادءة بالهجوم والانتصار بكسب الجولة . لأنهم عرب لهم خبرة بفنون الحرب ودربة بكيفية الانتصار فيها ـ ويستغرق الاعداد لحلف سنوات طوال ؟ يتربى فيها الطفل حتى يصير فارسا . وتكفى لتنشئة أمة من البداية للشباب .

---

(١) د . جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ص ١٠٩

(٢) الروض الأنف :ص ١٥٦

ثم ان حادثة الفيل انتهت بحلف مع الله ، يمثله عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت نصوصه كلها تؤكد على الرجوع الى الله ، والعمل في مرضاته ، والاستمرار في طريقه الذي يحبه يعبر عن ذلك تعلقه بأستار الكعبة ، ومناجاته لرب البيت حين قال :

لاهم ان العبد يمنع ∴ رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليب ∴ وعابديه اليوم آلك
هم جردوا لك جمعهم ∴ والفيل كي يسبو عيالك
فان كنت تاركهم وقبـ ∴ ـلتنا فافعل مابدالك

ومراجعة لما رتجزه عبدالمطلب ، تؤكد على أن القوم رجعوا الى الله وعقدوا معه حلفا يقوم على طاعته وتقواه ، والخوف منه والخشية من سلطانه وعقابه .

وليس حلف المطيبين هو السبب الوحيد لانعقاده كذلك . لأن حلف المطيبين كان عقب خلاف دنيوى على أمور السقاية والرفادة واللواء ، وبشكل عام على مايتعلق بالبيت على الخصوص ، وقيادة قريش ومكة على العموم ، وأنه انتهى بزوال السبب ، حين ارتضى المتصارعون على أن يقسموا مناطق الصراع والنفوذ فيما بينهم ، وأن يقتسموا مآثر الزعامة ، ويقسموا مصادر الثروة والفخار ولم يترك أثرا عنيفا يستوجب انعقاد حلف ، يدعى اليه الوجهاء ، ويخطب فيه البلغاء ويصوغ قراراته النبلاء ، وانما انتهى كل مظهر من مظاهر الخلاف بين القرشيين أنفسهم وبينهم وأنصارهم أيضا ، ولم يبق الا صوت العقل ، يناجى القوم فاليه يميلون ، ويخاطبهم فلحديثه يصغون . ولحكمه يستبقون .

بل انهم بعد حلف المطيبين هدأت أمورهم ، وأعطيت الفرصة لحكمائهم ، ولم يحدث ماينغص شيئا من معاشهم ، لولا همجية البراض ، وضيق أفقه ، وهجمته الباغية على عروة ، ومساندة العصبية في كنانة للبراض — ماحدث في الجزيرة مايشيع فيها الرهبة والخوف ويزعزع فيها الاستقرار ، بحرب ضروس ،

ألحقت الهلاك بالزرع، وعلى أثرها جف الضرع وعرفت بحرب الفجار ٠

اذن ٠ ليس حلف المطيبين ولا حادثة الفيل، وبالتالي يكون الأمـــر متعلقا بحرب الفجار، وأنها السبب الوحيد لانعقاد الحلف، والجـــواب عندي ٠ أن واحدة من الأربع لاتصلح وحدها سببا له ٠ بل انها جميعـــا في توقيت متقارب، ونتائج محددة، أوجدت في قريش ومكة على الخصوص، حالة من الأمن المفقود ٠ مما اضطر القوم الى تداركه، فدعوا فضلاءهم اليه، واتخذوا قراراتهم فيه، وكان نضجا فكريا سبق به العرب كل العالم المتحضر ٠

ــ ــ ــ ــ ــ ــ

الفصل الثالث

حلف الفضول من الناحية السياسية

حلف الفضول من الناحية السياسية

لايعدم الباحث فى حلف الفضول من العثور على نواح سياسية ذات أثر طيب فى الحياة العربية وهو من الناحية السياسية، يدل على وجه الحياة اللامع المشرق، وعقلية العربى الناضجة فى العصر الجاهلى .

يقول الشيخ محمد الغزالى : " أما حلف الفضول فهو دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها وكحلت شرورها ، فلن تخلو من نفوس تهزها معانى النبل ، وتستجيشها الى النجدة والبر . " ثم يقرر سيادته أن حلف الفضول كان دليلا على العدالة المطلقة، والحنكة والدربة التى تميل الى :

١ ــ مساعدة المظلوم باعادة الحق اليه .

٢ ــ محاربة الظالم واسترداد الحق منه .

٣ ــ الدربة السياسية التى تعطى صاحبها بعد نظر، فيسوس نفسه وأمته ويقود سفينتها الى شاطئ الأمان ، مهما كانت غضبة المحيط ، أو عنف موجات البحر .

ولاشك أن ذلك طُبِّعَ فى بعض رجالات قريش " ففى الجاهلية الغافلة ، نهض بعض رجال من أولى الخير، وتواثقوا بينهم على اقرار العدالة، وحرب الظالم، وتجديد ما اندرس من هذه الفضائل فى أرض الحرم (١) " مما يجعل افراد نصوصه بالتوضيح من الناحية السياسية . فى غاية الأهمية ، ولنتذكر وصية الامام على كرم الله وجهه لأحد عماله " فاشتد على الظالم . وَلِنَّ لأهل الخير . وقربهم اليك ، واجعلهم بطانتك واخوانك (٢) " والتى يتساوى فيها الحاكم والمحكوم أمام السلطة التشريعية والتنفيذية على السواء .

---

(١) الشيخ / محمد الغزالى : فقه السيرة ص ٦٥

(٢) دكتور/ أحمد محمد الحوفى : بلاغة الامام على ص ١٦٣
طبعة : دار نهضة مصر للطبع والنشر .

النتائج السياسية

١ ـ اختيار الحاكم :ـ

تؤكد الروايات أن جمعا من القرشيين ٠ هبوا الى دار عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ، واختارت القبائل ممثلين لها أمام من اختاروه حكما عليهم ليقدموا له مايرونه من أمور تخصهم سياسيا ، وليستمعوا منه كذلك الى مايفيدهم فى تلك النواحى ٠

يقول ابن هشام مصورا الموقف كأنه مراقب عن قرب :ـ

" تداعت قبائل العرب من قريش الى حلف فاجتمعوا له فى دار عبد الله بن جدعان ٠٠٠٠ لشرفه وسنه فكان حلفهم عنده ٠ بنو هاشم ٠ وبنو عبدالمطلب ٠٠٠ الخ فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول (١) " ولعل تلك الشروط التى تركزت فى عبدالله بن جدعان ، جعلت سائر قبائل قريش توافق عليه وتقف تناصره وتستجيب لأوامره ، وفيها مايشير بوضوح الى مايجب أن يتحلى به أى حاكم أو زعيم سياسى ٠ وهو :ـ

أ ـ أن يتم اختياره مباشرة ٠

ب ـ أن تكون لديه الامكانيات والملكات التى تؤهله لقيادة أمته ٠

جـ ـ أن يكون واسع الأفق طاهر اليد ، شريف النسب عف اللسان ٠ عالى الهمة ٠

د ـ أن يكون لديه حضور قوى ، يجابه به خصومه ، ولين داخلى يفترشه محبوه ٠

هـ ـ أن يعطى الفرصة ليعبر كل ممثل لقوم عن رأيهم ٠

و ـ أن تكون لديه السلطة الكافية لتنظيم أمته واستمرار صلاحيتها ٠

ل ـ الا يشعرهم بأنه مقدس أو فوق الرؤس ، أو أنه يستمد سلطته من الجناب العالى ٠

ى ـ أن يكون على استعداد لترك المركز الذى يشغله متى وجد ذلك يعوقه عن مصالح أمته ٠

---

(١) الروض الأنف : جـ١ ص ١٥٣

ومن يطالع مشروع السلام الدائم للفيلسوف الألمانى "كانت" يجد أن ما انتهى اليه فى مشروعه، هو نفس ما استقرت عليه فطرة العربى الجاهلى قبل أربعة عشر قرنا من الزمان . بل ان ما فى حلف الفضول من جوانب سياسية لا تشوبه الأخطاء التى وقع فيها مشروع "كانت" الذى تغنت به أوربا، وعلى نصوصه عزفت الأوتار، وعلى ضفافه غير المستقرة رقصت أوربا كلها، ثم غفلت لتواجه صبح يوم عاصف، لم تشفع فيه عواطف الكنيسة، ولم يجد معه "كانت" فضلا عن مشروعه(١)" .

٢ - حرية اختيار الحاكم :

أكدت الروايات على أن ممثلى القبائل فى حلف الفضول، لم يأتوا قسرا، ولم يدفعهم الى الحلف ضغط السلطان، أو سوط السجان، ولم تتراقص أوتار المقصلة أمام أعينهم، بل كان الدافع من داخل أنفسهم، دافع تمليه عليهم الحاجة الملحة والمصلحة المفروضة، ولم يذكر أحد أن بعض ممثلى القبائل قد حجز على رأيه، أو ألغيت من المضبطة كلمته، أو قرئت على جهاز أمن الدولة عبارته .

وتلك الحرية تجعل مَنْ يتم اختياره فى درجة تمكنه من قيادة أمته بجرأة، لأنه تم اختياره من بينهم وبرغبة صادقة منهم، فكلهم عون له، وهو سند لهم، يساوى بينهم فى أبسط الحقوق كما يمثلهم فى أكبر الواجبات . وهذا الذى عاش فى البيئة العربية مع حلف الفضول القرشى، وتحقق فى عالم الواقع، تغنى

---

(١) الدكتور/ عثمان أمين : مشروع للسلام الدائم لكانت مترجم حيث تنص المادة الثالثة من القسم الثانى على أنه : "حق النزيل الأجنبى من حيث التشريع العالمى مقصور على اكرام مثواه" فى الوقت الذى يقرر حلف الفضول أن النزيل الأجنبى له كافة الحقوق والواجبات التى للمواطن طالما أن الأول لم يمارس عملا منافيا لما يقره المجتمع القرشى . فأيهما أولى وأحق ؟

بمثله " جان جاك روسو " ، فى عقده الاجتماعى . داخل مدينته المثاليـة التى طالما حاول تطبيقه فيها ، فكريا — حتى هدمت من أساسها ، لأن الحاكم عنده أوجدته مصالح خاصة ، واختياره فيه تنازل مهين ، فلم ينجح عقـده ، ولم تفلـح فكرتـه .

٣ — حق تقرير المصير بالمقارنة :

كفل حلف الفضول القرشى ، لكل مواطن حقه فى تقرير مصيره ، واختيـاره اللون السياسى الذى يتمشى مع رغباته ، لم يقف فى سبيل ذلك شئ ، الا المصلحة العليا لقريش كلها ، نلمح ذلك فى نصوص الحلف التى نصت على أن تحالفهـم وتعاقدهم فى حدود مكة فقط وفى إطار قبول كفاية المكيين له فى حمايته وتقرير مصيره . فقد نص الحلف على " ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس ، الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد اليه مظلمته[1] " .

ومع مافى نصوصه من الثقة ، فانه يشمل الدقة فى الصياغة ، اذ لم يقتصـر على أهل مكة وحدهم ، كما لم يقصر نفسه عليها والقبائل المتحالفة معها ، بل شمل كل ظاعن ومقيم ، وبدوى وحضرى ، من كل أجناس الأرض ، فما أشبه الأمـم المتحدة بهذا الحلف ، وما أشد عجزها عن مماثلته فى قراراته وتنفيذها .

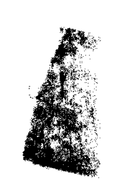
ولو قارنا حق تقرير المصير عند العرب الجاهليين ، به فى العصر الحديث صاحب التقدم المذهل فى العلم والتكنولوجيا لوجدنا فرقا هائلا ، وبونـا شاسعا ، وكسرا لايمكن جبره ، من ذلك على سبيل المثال :—

(١) "حرية الانسان " — حقوق الانسان —

أكد حلف الفضول على احترام الانسان وحريته باعتباره فردا يمثل ذاتـه ، وفى العصر الحديث ، اختلفوا فى احترام الانسان ، فمنهم من مال الـى أن الفرد لاقيمة له ، ولا احترام الا للدولة التى هو من رعاياها وقيمته تحدد باعتبار

---

(١) الروض الأنف : ص ١٥٦ ، ١٥٧ .



الدولة المنسوب اليها ، من حيث القوة والضعف، ومنهم من مال الى أن الانسان نوعان راق ومتخلف وللأول كل الحقوق وعلى الثانى جميع الواجبات حتى نمت من جديد فكرة السيد والخادم، وصرنا نواجه فى العصر الحديث " تيارين متباينين أشد التباين :

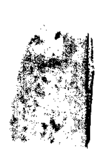
١ ــ تيار استعمارى : يستند على فكرة السيادة المطلقة للدولة دون اعتبار للمجتمع الدولى ويستمد قيمه من وصايا " ميكيافيللى " والذى يقرر أن " الغاية تبرر الوسيلة دون أى اعتبار للقيم الانسانية أو الخلقية " .

٢ ــ تيار انسانى : يكره الحرب وينبع عن الشعوب، ويتطلع الى حياة دولية يسودها السلام والتعاون والمحبة بين شعوب الأرض قاطبة[1] "

من ذلك يتضح أن حرية الانسان التى كفلها حلف الفضول القرشى لا وجود لها بمعناها الدقيق، فى أرقى القوانين العالمية، والمواثيق والمعاهدات الدولية. وهذا يعنى سبق الحلف القرشى الناتج عن العقلية العربية، لكل الأنظمة الحديثة العالمية . بل وكفاءته التى لا وجود لها فى غيره .

(٢) احترام أمنه وأسراره :

أكد حلف الفضول على احترام أمن كل مقيم وظاعن وبدوى وحضرى ، أمنه على نفسه، ومتاعه وماله، وركز على عقيدته وأسراره، وما يحمله فى جنباته من أمور متعلقة به تعتبر من خصوصياته بل وكفل لكل فرد الحق فى حمايتها . وأيما شخص وقع عليه ظلم من هذا النوع، كان له الحق فى اللجوء الى جهة تنفيذ نصوص الحلف، السلطة التنفيذية، وبلغة العصر الحديث جهاز الشرطة وهى بدورها تنفذ النص عليه أوله . وما يزال هذا الأمر فى الجزيرة العربية فى السعودية الى الآن . لأن الاسلام أقر هذا فيما أقر من عادات العرب قبله .



(١) الدكتور/ مختار التهامى : الصحافة والسلام العالمى ص ٢٤ دار المعارف بمصر ــ سلسلة دراسات صحفية ــ .

أما في العصر الحديث فلا احترام لأمن انسان ما . يتساوى في ذلك الرأسمالي والشيوعي ومَنْ بين بين ، وكم سمعنا عن زوار الفجر ، الذين يروعون آمن الآمنين ، وينتزعون رب الأسرة من وسط زهوره الصغيرات فيقتلون فيه الأمن ، ويغرسون فيهم اليأس والبغضاء وربما تابعوه حتى لايتجه الى الخالق العظيم جل علاه ، وكم من أسرة زج بها في غياهب السجن لمجرد أن واشيا نسب اليهم مايعتبره أصحاب العصر الحديث جريمة ، وكم من أعراض بأيد آثمة هتكت ، وكم من بيوت كرم ونبل تمزقت ، وكم من علماء أجلاء كانت تشمئز من آلامهم الحيوانات المفترسة ، وكل ذلك دون مراعاة لأبسط حقوق الانسان في المحافظة على أمنه ومثل ذلك امتلأت به الصحف .

أما أسراره . فلاينبئك عنها مثل خبير . يتشدق القوم بأنهم أهل حضارة ، وأصحاب تجارة ، فأنشأوا حكومات خفية تتابع المرء أينما ذهب ، تبحث عن أسراره ، وتجوس خواطره وتعمل على مشاركة الاله العظيم في قلب عبده الضعيف . " ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن[1] " وليس هذا فحسب ، بل انها امتدت الى خياله ، وما يحلم به أو يداعب حنايا فؤاده ، أو يزف البشرى الى قلبه المكدود . فتحاسبه عليه ، وتنسب من توقعاتها اليه . واتخذوا في سبيل ذلك كل وسيلة ، بدء من عمليات غسيل المخ ، الى التصفية الجسدية ، الى التعذيب النفسي ، الى أوجع الآلام ، وأفظع الجرائم ، التي لاتستباح في عالم الحيوان ، دون مراعاة لحرمة شهر ، أو تقدم عمر ، أو ظروف مرض ، أو تقدير عذر ، أو ارتكاب جرم[2] .

---

(١) حديث قدسي .

(٢) راجع محاكمة الاخوان المسلمين ، وأحكام محكمة الثورة وغيرها في مصر ، وسجلات وزارة الداخلية من ١٩٤٦ ـ الى عهد قريب ، وكذلك المحاكم العسكرية السورية ، والتي كانت تحكم على الاخوان المسلمين بناء على رغبة الكرملين مرة والبيت الأبيض مرات . والمقابل نقدي في شكل معونة .

ولم يقتصر هذا على الأفراد بل شمل الأسره وتعداها الى الحكومات والدول حتى أن " أقمار التجسس الصناعية الأمريكية التى تمر فوق موسكو تستطيع أن تنقل الى مقر ادارة المخابرات المركزية فى واشنطن ، المحادثات التى تجرى بين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى وسائق سيارته عن طريق التليفون اللاسلكى ، وأن استراق السمع على مايجرى داخل الكرملين هو احدى مهام الأقمار الأمريكية " ساموس" التى يمكنها أن تجمع ـ مثل الأقمار السوفيتية ـ فى دورة واحدة حول الأرض معلومات تزيد على تلك التى يستطيع أن يجمعها جيش من الجواسيس يجوب أرجاء العالم (١) "

ولعل بعض هذه الفوارق ، هو الذى تردد فى وجدان العربى وعقله وحرك فيه الهاماته الشعرية فأنشد وتغنى :ـ

حلفت لنعقدن حلفا عليهم ∴ وان كنا جميعا أهل دار

نسمية الفضول اذا عقدنا ∴ يعز به الغريب لدى الجوار

ويعلم من حوالى البيت أنا ∴ أباة الضيم نمنع كل عار (٢)

ومع نهايات القرن العشرين ، بدأت دول أوربا تعيد حساباتها فى أحقية الانسان لممارسة أمنه وحماية أسراره ، والعودة الى ماقرره حلف الفضول العربى القرشى من أربعة عشر قرنا ، فقد قام كثير من أعضاء الكونجرس الأمريكى " بهاجمة ذلك القانون . فقد قال بول روجرز العضو الديمقراطى بمجلس النواب عن ولاية فلوريدا محذرا ومنذرا : إن ذلك القانون يفسح المجال أمام بعض كبار رجال الحكومة لاتخاذ تدابير تعسفية جائرة (٣) " . وكان يقصد بذلك تحجيم المشكلة

---

(١) ديفيد وايز و توماس روس : الحكومة الخفية ص ١٦ دار المعارف بمصر ، ترجمة جورج عزيز .

(٢) د . جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ص ١٠٨

(٣) ديفيد وايز : الحكومة الخفية ص ٢٥٩ .

بحيث يتاح جزء من الأمن للفرد ذاته داخل الدولة التى يعيش فيهـــا ، وتستنف كل قوته وشاركه، وحبات قلبه و سنى حياته . وقد فقد كل ذلك بقانون وضعــى .

وقد حاول " فرنسيس بيكون " الانجليزى أن يعالج هذا القصور فى القرن الخامس عشر الميلادى وتخيل ذلك فى مدينته الفاضلة " أطلنطس الجديدة " غير أنه حينما حاول التطبيق بان عجزه رغم ادعاء القوم أنهم أصحاب المدنيـــة وصناع الحضارة . ولم يقف العجز عند حد تصور بيكون لمدينته بل ان مجـــرد ذلك التصور قد جر وبالا على بيكون ، لأنه أغرقه فى خيال جامح ، وشك عنيــف أسلمه الى ضعف فى القوى ، واضطراب فى الفكر، فهلكت أطلنطس ، وغـــرق ساكنوها وهلك بيكون حزنا على أفكار لم تولــد ، ومدينة لم تخلق .

من هنا كانت اشادة الرسول صلى الله عليه وسلم بحلف الفضول تاج فخـــر لايضارع، حين قال : " لقد شهدت مـع عمومتى حلفا فى دار عبدالله بن جدعان لما أحب أن لى به حمر النعم . ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت[1] " وقد تناول الشيخ محمد الغزالى الروايات فى هذا الحديث. وانتهى الى أن الامام أحمد — رضى الله عنه — أخرج هذا الحديث من حديث عبدالرحمن بن عوف مرفوعـا لكن بدون اضافة " ولو دعيت به فى الاسلام لأجبت، وسنده صحيح[2] " .

ولعل هذا الحلـف بهذا الشكل قد أشاع فى قريش أمنا فوق أمن ، حـــتى " أن بريق الفرح بهذا الحلف يظهر فى ثنايا الكلمات التى عبر بها رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم عنه . فان الحمية ضد أى ظالم مهما عز. ومع أى مظلوم مهما هان . هى روح الاسلام الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر، الواقف عند حدود الله ، ووظيفة الاسلام أن يحارب البغى فى سياسات الأمم وفى صلات الأفـــراد

---

(١) سير ابن هشام : جـ١ ص٨٧ وفى رواية : " ولو أدعى به فى الاســـلام لأجبـــت " .

(٢) الشيخ محمد الغزالى : فقه السيرة ص ٦٦



علـى السـواء (١) .

وكان حلف الفضول بهذه الدرية السياسية ، التى حوتها نصوصه ، علامة على النضج العربى فى قرون خلت ، ودلالة على تقدمة فى السياسة والاجتماع ، كتقدمه فى الدين والكرم والفخر والرثاء ، ومحاربة الاشاعات والسبق الى نصرة المرء من نفسه ، وانتصاره من غيره " ولم يكن من مصلحة قريش وبقية سكان مكة ، وهم حضر مستقرون ، أن تنتشر الفتن وظهور الاعتداء على مدينتهم وما حواليها ، لقد كانوا يرون العافية فى السلامة وفى الاستقرار الطمأنينة وراحة البال ، ولهذا كانوا لايشتركون فى قتال الا اضطرارا ودفاعا عن مال ونفس ، وقد كانت أضرار حرب الفجار وأمثالها من الحروب شديدة الوقع عليهم ولاشك (٢) " فاندفعوا يتطلعون الى قادم من بعيد ، يعيد اليهم ما سلب منهم ، وكان ذلك الأمل وشيك التحقق فأرسل الله اليهم وفيهم نبى الاسلام سيدنا محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

: : : : : :

(١) المرجع السابق : ص٦٦، ٦٧

(٢) د / جواد على : تاريخ العرب فى الاسلام ص ١٠٨



الفصل الرابع

حلف الفضول من الناحية الاقتصادية

أثره من الناحية الاقتصادية

ما من شك في أن نصوص حلف الفضول وقراراته ، قد أسهمت بنصيب وافر في الحياة السياسية قديما ، بوضع أسس منهجية ، سار على أثرها العرب في جزيرتهم ، وظلوا في تطور سياسي مستقر ، صاغوا على هدى منه قوانينهم في الحياة ، ولم يوقف ذلك التطور الا شئ من العصبية القبلية البغيضة ، التي مارست نفوذها بشكل سافر لوقت قصير ، وحين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فأقر من سياستهم ما كان ملائما ، وهجر منه ما خالف قواعد الاسلام الحنيف فاستراحوا بضمائرهم الحية اليه ، وهدأت نفوسهم الآمنة به ، ورأوا فيه علامة للتقوى وصلاح الدنيا والآخرة .

وهنا نبحث أثر حلف الفضول في الناحية الاقتصادية ، وأول ما يطالعنا من نصوصه نجد أنهم عملوا على تأمين كل ظاعن ومقيم بتجارته ، وبلغة العصر ، تأمين رأس المال وصاحبه باعتبار أن صاحب المال قيمة اقتصادية ، يخضع للعرض والطلب ، كما يحتاج الى الأمن والاستقرار ، وتأمينه يتيح له فرصة أكبر ، فيبدأ في اعداد مشروعاته ودراستها ، والنزول بثقله الى الميدان الاقتصادي ، فيزدهر وتتوفر السلع ، ويعم الرخاء . وهذا ما يعرف " بالأمن الاقتصادي " .

وحلف الفضول قد أكد على تأمين أهل مكة " وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس[1] " لأنهم يمثلون الاقتصاد القومي للبلد ذاته ، وما الاقتصاد القومي الا " مجموعة من الأفراد والمؤسسات يباشرون نشاطهم الاقتصادي في حدود دولة معينة ، ويترابط أعضاء هذه المجموعة بعلاقات متنوعة[2] " وأمنهم من الضرورة بمكان ، حتى يستقر الاقتصاد كله . وهذا يتضمن التالي :

---

(١) محمد بن عبد الملك بن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم — مراجعة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد جـ١ ص ١٤٥ ط الشعب .

(٢) الدكتور / زكريا أحمد نصر : مقدمة في نظرية القيمة ط " ١ " ص ٣ دار نهضة مصر ١٩٦١م



١ ـ تأمين نشاط رأس المال :

وذلك لايكون الا اذا وضع قانون عام ، يحترمه المجتمع كله ، تسنه السلطة التشريعية وتحافظ عليه السلطة التنفيذية ، ولايكون التحاكم فيه الا الى ضوابط قانونية وقواعد فقهية • فلا تنافسه شركات القطاع العام المدعومة التى تتباهى كل عام بحجم ماتحققه من خسائر ، ولا تكبله أنشطة نقدية ، تفرض أكثر من سعر للسلعة الواحدة والعملة الواحدة ، ولاتطارده أوعية ضرائبية ، الحكم فيها لرغبة مأمور الضرائب وعلاقاته الشخصية ، وهداياه العينية والنقدية ان كان ممن يقبلها •

ولذا نجد حلف الفضول قد خول سلطة التشريع الاقتصادى ، للسوق المنافسة ذاتها ، دون تدخل يسئ اليها أو يعوق نشاطها ، فلا احتكار لرأس المال ولا تأميم ، بل ولا حجر عليه ولاتحجيم ، ولو كان الأمر غير ذلك ، لسمع قول العاصى مثلا ، وما رجع الحق للزبيدى • ومن يقارن تأمين نشاط رأس المال ، فى حلف الفضول بغيره ، من النظريات الحديثة يجد فوارقا لاحدود لها •

فعلى سبيل المثال ، نشاط رأس المال فى النظرية الماركسية ، مرتبط بالنزعة الطبقية ، محكوم بالنظام السياسى للدولة لايتعداه ، بل ان المنافسة فى حد ذاتها مرهونة بسلطة الدولة دون نظر الى صاحب المال • فضلا عن تأمين نشاطه ، وفى كثير من الحالات يلجأ أصحاب رؤس الأموال الى ذرائع ، يتعلقون بها ، وفى النهاية يتحول المجتمع كله الى أمة لايملك أفرادها شيئا ، ولاتملك من أفرادها الا حياتهم يبذلونها فى غير كرامة ، ويجرعون كؤسها بمرارة ، يفقدون فيها كل مايملكون حتى الولاء للوطن الذى يعيشون فيه سنى حياتهم فوق أرضه[1]

(١) راجع الماركسية ، كارل ماركس ، المادية الجدلية •

وفاقد الشئ لا يعطيه ومادا موا قد افتقدوا الأمان لأنفسهم وأموالهم فلن يكونوا الا شواذم منزوعة الأصل وهو ما نواجه بعضا منه الآن ، اللهم سلم.

ومن سبيل تأمين نشاط رأس المال . توفير السوق والعمالة ، وامكانية قيام مشروعات استثمارية . قادرة على تمويل النشاط فضلا عن تأمينه ورأس المال . وسهولة توفير السيولة النقدية اللازمة لرأس المال ، والتى تزيد من امكانياته ، وتعين على اتساع نشاطه الاقتصادى بصفة عامة فى جانبيه الانتاجى والاستهلاكى . وحلف الفضول قد سبق الى ذلك كله ، بحيث يمكن القول بأن النظرية الاقتصادية فى كافة أشكالها وفروعها قد شملها حلف الفضول عند العرب الجاهليين . ولعلها مما استبقاه صلى الله عليه وسلم " فى وصيته لمعاذ بن جبل ، حين قال له : " وأمت أمر الجاهلية الا ما حسن " (١) .

واذا كانت الدول الحديثة ، تبذل قصارى مساعيها فى سبيل تأمين رأس المال وصاحبه ونشاطه وتعقد لذلك الأحلاف ، وتقيم المعاهدات ، وتختار لحلفها رئيسا ولو شرفيا ، ولمعاهداتها صيغا تصبغها بالعمومية وتشير نحوها بالالتزام (٢) ، فان العرب بحلفهم قد سبقوا لذلك كله ، واختيارهم لعبد الله بن جدعان ومنزله أوضح مظهر لذلك السبق ، بل وفيه من الكفاءة الاقتصادية والأخلاقية ما لا يمكن البحث عن مثله فى العصر الحديث .

فكم من دولة أعلنت حمايتها للنشاط الرأسمالى ، بنوعيه ، ولما ان تغير نظام الحكم فيها حتى تراجعت عن اعلانها ، وتحللت من كافة قيودها ، وضاع رأس المال كله ، فضلا عن عدم تأمين صاحبه (٣) . وتأميم رأس ماله ، وكم من صاحب

---

(١) الشريف الرضى : المجازات النبوية ص ١٣٣ ط الحلبى تقديم : طه عبد الرؤف سعد .

(٢) من ذلك مثلا السوق الأوربية المشتركة ، ومنظمة الأوبك البترولية ، ومؤتمر أرباب الشركات الصناعية ، وكثير غير ذلك ممن لهم اهتمام اقتصادى أو صناعى .

(٣) على سبيل المثال : فرنسا أرض الحريات ، حين تولى " ديستان " الحكم —

مال ، حجر على نشاطه ، ولأسباب سياسية أو عقائد ايديولوجية لاتمت الى رأس المال والجانب الاقتصادى بشئ ، بل ربط امتد كل ذلك اليه لعدم حصوله على الجنسية المطلقة ، أو لخلاف ناشئ بين دولة الأصل ودولة المشروعات ، وهذا كله لم يقع فيه حلف الفضول ولا رجاله ٠

٢ ـ المنافسة الحرة وضرب الاحتكار :

اذا جرينا على أن حادثة الزبيدى سبب رئيسى لحلف الفضول ، فاننا نلاحظ محاولة العاص احتكار سلعة الغريب حتى اذا ما جمع كل أطراف السلعة واحتكرها هو ، بدأ فى انزالها السوق دون منافسة حرة ، فيحصل بذلك على ربح وفير ومال كثير٠ ويتمتع بالاحتكار الكامل ٠ لانحصار " العرض كله فى عارض واحد ، يواجه كثرة من الطالبين " (١) .

ولكن العرب لم يرتضوا هذا اللون من الاحتكار ، وضربوا عليه وأغلقوا الباب أمامه ، اذ همُّوا لارجاع البضاعة للبائع ـ الغريب ـ واسترجاعها من المحتكر القريب ـ العاصى ـ حتى تظل أبواب المنافسة الحرة مفتوحة أمام قانون العرض والطلب ، ولأن المنافسة الحرة تقتضى عرض أفضل الأنواع بما يناسب من أسعار٠ وفى استرداد الغريب لبضاعته فرصة كبيرة لبيعها بما يتلائم مع ظروف المنافسة الحرة ، دون تدخل من سلطة عامة ، أو تكتل قادر على فرض ارادته فى السوق بيعا أو شراء ٠

والباحث يلاحظ أن ما انتهى اليه حلف الفضول من قرارات ، ضمنت بجانب ما سبق وجود منافسة حرة كاملة ، لاسلطان فيها للعاصى وتكتله ، ولا حاكم مستبد وأعوانه ، وانما الفيصل فيها لجودة النوع ، وقلة التكاليف ، مع رخص فى الأسعار ، من هنا اعتبر العرب كل قادم لبيع أو شراء أو زيارة ـ سياحة ـ

اتجه نحو الرأسمالية الوطنية وتأمين نشاط رأس المال ٠ ثم تولى "ميتران" فاتجه الى الاشتراكية وأمم المصانع والشركات ثم تولت حكومة "شيراك" مع رئاسة ميتران وبدأ الصراع فى عام ١٩٨٦م ولن يتحمل الخسارة الا رأس المال المفزع ولن يشعر بحجم الخسارة الا المواطن العادى المكدود ٠

(١) د / زكريا أحمد نصر : مقدمة فى نظرية القيمة ص ١٧٩٠

وحدة اقتصادية مستقلة، تتكافل مع الأخرى فتكون انتاجا فى ناحية، أو — استهلاكا فى ناحية أخرى ٠

وما من شك فى أن هذا لم تعرفه الأسواق العالمية فى العصر الحديث الا بعد جولات من الصراع انتهت الى الاحتكار الكامل من جانب البائع وحده، أو المشترى وحده، وظلت تعانى بسبب ذلك مشكلات عديدة، وتواجه فى نفس الوقت أزمات متعددة٠ مما أوجد ألوانا من الاحتكار لم تفلح فيها دموع الجائعين، ولم تثنها أجساد العارين، ولم تشفع لديها أنات المساكين من ذلك على سبيل المثال ٠ احتكار البن ٠ وهو سلعة وان كانت ليست جوهرية الا أن القاءه فى النار محروقا بمزارعه، وحرمان البشرية منه، أمر يستنكفه ضمير العربى، ويرفضه وجدانه، رغم ما ينسب اليه، أو انزاله فى مياه المحيط ٠

واحتكار القمح وهو غذاء شبه رئيسى وسلعة ضرورية لأغلب شعوب الكرة الأرضية، ولما ضاقت عليه مخازنه، ألقى فى عرض البحر، حتى تحرم منه البشرية الجائعة والتى تلاقى الفناء الجماعى وبلقمة قمح أو كسرة خبز يمكنها مواجهته والصبر أمامه، الا أن الاحتكار يفرض نفسه فى تكبر وعناد فى ظل القرن العشرين، الذى يدعى أصحابه من غير المتدينين إنهم أهل حضارة وأصحاب مدنية، ويتباهون بمأساة الجفاف، والمجاعة فى أفريقيا وآسيا ٠ فأين هذا من خُلُقِ العربى الجاهلى ونظامه الاقتصادى ورفضه الاحتكار ؟ ٠

ومأساة الذُرة التى دأبت الولايات المتحدة الأمريكية على هلاكها فى مزارعها أو انزالها فى أعماق المحيط حتى يركع العالم الجائع لها، فتقدم اليه الفتات فى شبه مساعدات مادية أو معونات غذائية، لتضمن ولاءه لها، وتشترى كرامته بها، واذا لم يركع حرم منها، مع أنها لاتقدمه غذاء لحيواناتها، وانما تحتكر انتاجه لتشترى به حريات الأمم وكرامة الشعوب، وينطبق هذا على كل سلعة احتكارية مما لم نجد له شبيلا فى حلف الفضول ٠ بل اننا نجد العكس من

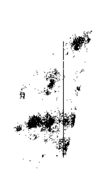
ذلك مما يستوجب مراجعة سجل العرب وتاريخهم الحافل لمعرفة ما أفاضوا به على البشرية المجهدة فأنقذوها من الدمار المحقق ، وتركوها عند شاطئ الأمان وكانت حروبهم فى أغلبها لرفض ذلك الاحتكار .

٣ ـ الاعلان عن السلعة :

ضمّن النشاط التجارى حق البائع والمشترى والسوق كله فى الاعلان عن السلعة من حيث النوعية والجودة والعيوب والمميزات . وكان ذلك عند العرب معروفا ، وان كان السعر متروكا للعرض والطلب . اللهم الا اذا كان السعر من قبيل مصلحة عليا . وهو السعر الجبرى ـ نرى العرب اذا عرضوا سلعة حددوها وزادوا فى وصفها وبيان عيوبها من المميزات ، وقد حفلت كتب الآثار بكثير من ذلك ، حتى ولو كانت السلعة جارية من الجوارى أو غلاما للبيع (١) ، حتى لو كان مسروقا أو لقطة ، لم يتعرف عليها .

وظلت تلك حالهم ، ولذا حين سئل الزبيدى عنها أدلى بأوصافها المعلنة سابقا ، لم يخطئ واحدا منها ، حتى اذا ما طلب شهودا كانوا جميعا يعرفونها بكل تفاصيلها ، فلما جاء الاسلام أقر ذلك ، ونعت غيره بالغش فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا " رواه مسلم (٢) .

وفى رواية لأبى هريرة رضى الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على صُبْرَةِ طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا . فقال ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس . من غشنا فليس منا " (٣) .



(١) نرى ذلك فى مسألة بيع يوسف عليه السلام لعزيز مصر ، ومثله من الغلمان والجوارى .

(٢) شيخ الاسلام النواوى : رياض الصالحين ص ٥٢٤

(٣) المرجع السابق : باب النهى عن الخداع والغش ص ٥٢٤ .

والاعلان عن السلعة أمر جوهرى فى الناحية الاقتصادية ، اذ به يعرف المشترى طبيعة السلعة التى سوف يقدم عليها ، وقيمتها التى سيبذلهـــا فيها ، سواء كانت السلعة ضرورية أو كمالية لافرق فى ذلك بين أن تكون السلعة مرنة أو غير مرنة [1] . وبالملاحظة نجد أن حلف الفضول أفاض فى هذه الناحية وذلك من خلال الأوصاف التى أدلى بها الزبيدى عن سلعته والتى أعلـــن عنها بها ، حين قدَّمها للسوق معروضة . وهذا سبق هام فى الناحيـــة الاقتصاديـــة .

وبمقارنة الاعلان عن السلعة فى حلف الفضول وغيره من الأنظمـــة الاقتصادية الحالية الغير اسلامية ، نجد اختلافا جوهريا . فعلى حين يشترط حلف الفضول اعلانها ، نجد أن الاعلان عنها فى الأنظمة الأخرى تشوبـــه أوجــه نقــص عــديــدة منهـــا :ـ

التغـــريـــر :

وهو يقوم على الاعلان عن كل ميزات السلعة ، ويعرض لها سعرا معينـــا بناء على ماذكره ويُقدم المشترى عليها بناء على الاعلان ، ثم يفاجأ عنـــد الاستلام والتملك بأنها غير ماتوقع وأن العيوب فيها أكثر من المحاسن ، وأن قيمتها الحقيقية لاتساوى نصف مابيعت به . فاذا مالجأ الى القانون يستعطفه فى استرداد حقه السليب . وجد فى القانون الوضعى تفسيرات لاحد لهـــا ، كلها تبيح ماوقع فيه وتؤيده ، وينتهى الى سماع مقولة ظالمة " القانـــون لايحمى المغفلين " كصفقات السلاح الفاسد فى الماضى ، وصفقات المبيدات فى هذا العام . وربما يكون ذلك المغفال قد بذل فى السلعة كل مايملك [2] . وربما تجرأ على سنى حياته ، وجار على رصيد معاشه فاستبدل منه ، أو مؤخـــر

(١) يرى علماء الاقتصاد أن السلع الضرورية فى طلبها غير مرنة على عكـــس الكمالية فانها مرنة فـــى طلبهـــا .

(٢) نرى ذلك بوضوح فى الاعلان عن مساكن التمليك بأنواعها والعقارات والأراضى المقسمة ، ولاحماية للمغفل ، ولا جريمة للمغـــرر .





زوجه فتحلل منه ، أو اتجه الى مصرف ربوى فاستدان منه (١) أو انحنى على دمث فذبحه بسيف الحياء واستدان الدمث له والسبب الُملِحَ هو الذى ألجأه ، والشيطان اللعين أوقعه ، والقرين غرر به .

ولا يسع المغرور الا أن يلجأ الى دولة أخرى يقضى فيها بعض الوقت ويستثمر فيها حصيلة ماغرر به من أموال ، يساند ه فى ذلك قانون وضعى أعرج ، أو سلطان شرطى أهوج ، أو حصانة برلمانية تحجب الناس عن مطالبته وربما كان له فوق ذلك صهر عزيز ، أو نسب رفيع ، أو ظهر يجعله الرئيس والحاكم والملك ، ومافوق ذلك من ألقاب ، لاتعرف الا فى شريعة الغاب ، وتجار القانون الوضعى ، ومَنْ خلت قلوبهم من معانى الايمان بالله الذى لايغلبه غالب .

ومما هو جدير بالذكر أن الاسلام نهى عن الغرر وحرمه بيعا وشهادة . ومجهود علماء الفقه والأصول فى هذا كثير حيث اعتبروه من أنواع البيع الفاسد وقاسوه ببيع المعدوم وبيع " الثمار قبل بدو الصلاح من غير شرط القطع والغرر وسلاح للحربى (٢) " وفى النهى عن الغرر مصلحة كبرى ، كما أن فى الاعلان عن السلعة منفعة عظمى ، وهذا ماأقره من قديم حلف الفضول القرشى الجاهلى وفعلا قد حاز فضل السبق لغيره من الأنظمة الحديثة فى الناحية الاقتصادية .

---

(١) توسع الناس فى ذلك كثيرا ، وبخاصة من بنوك القرى التى تقرض بفائدة ربوية نصف سنوية تَصَّعَّد تلقائيا . والبنوك الأخرى التى تداعب أحلام البسطاء والسفهاء على حد سواء ، فتمنحهم فائدة ربوية مشروطة كعائد شهرى ، يبتهج له البله ، ويصفق له بحرارة المستفيدون . وهو حرام فى كل نواحيه لأنها تعطى الدائن بسعر ربوى لايزيد على ١٢٪ بينما تقرض على المدين فائدة تصل الى ١٧٪ تخصم من قيمة القرض أولا .

(٢) الامام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى : الأشباه والنظائر فى قواعد وفروع فقه الشافعية ص ٤٧٧ . كتاب البيع . طبعة عيسى الحلبى والرسالة للامام الشافعى تحقيق الشيخ أحمد شاكر .



من هنا يبدو جليا ، أن حلف الفضول قد تفادى بقراراته في جانبها الاقتصادى ، كل جوانب النقص فصار واحدا برأسه ، لايوجد نقص فيها يمكن نسبته اليه ولو أن البشرية تركت التغرير ، وصار كل واحد فيها واضحا كما خلقه رب العالمين ، ما وجدت شركات للاحتيال باسم الاقتصاد ولا هيئات الانحراف باسم التجارة ، ولا تجارة الرقيق الأبيض تحت اسم سوق العمالة . ولا احتكار الدولار والدينار باسم العملة ، ولا اطمأن كل امرئ على نفسه وماله وعرضه وولده ووطنه .

بيد أن رجوعهم الى الخلقة التى فطرهم الله عليها ، يستلزم ارجاعهم الى الله فى دينه ، والقيام على تعاليمه ، والمواظبة على الطاعة والاستمرار فيها ولا يكون ذلك كله الا بضمير يقظ حى يعيش فى كل فرد ، يؤنبه ويهذبه ، يدعوه الى مراجعة نفسه وقراءة سجلاته والنظر فى ميزان قربه من الله أو بعده ، لتكون له العاقبة الحسنة .

وهذا كله لايتم الا من خلال برامج اسلامية تنتشر فى كل وقت ، وتغطى كل مكان تتمكن من الوصول اليه ، ويابنى وطنى الحذرَ الحذرَ فاننا بعدنا كثيرا عن شرع الله ، ولم نعد نتبع سنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمر صار قاب قوسين أو أدنى ، بعد أن غزت ديارنا ثقافات الجنس المباح ، والحرام المتاح ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

الفصل الخامس

أثر حلف الفضول في علم الاجتماع



أثره في علم الاجتماع

تمهيد :

لم يكن حلف الفضول من الأمور التي تأتي عفو الخاطر أو بالمصادفة العمياء ، أو نتيجة خبطة عشواء ، أما لماذا ؟ فلأن النتائج التي انتهى بها الأثر الاجتماعي الذي تركه ، وبارقة الأمل التي بعثها في عالم يومه ، يؤكدون على أنه كان باكورة فنية في الناحية الاجتماعية ، بكل ما تعنيه من أفكار وتطبيق .

حقا ان حلف الفضول قد أرسى قواعد كلية في الاجتماع ، تظهر عند المقابلة بين ما انتهى اليه الحلف وما يثيره المتخصصون اليوم من آراء وما يبثونه من نظريات ، تفيد كلها أن العالم المتحضر قد استفاد من حلف الفضول القرشي سواء اعترفوا بذلك أم لا . وان كانت النتيجة النهائية تلزمهم بذلك .

صحيح أن العرب لم يعرفوا علم الاجتماع كعلم ، بمفهومه المعاصر ، من حيث قواعده ، وأصوله والكم الهائل من نظرياته وتقريرات المتخصصين فيه ، ولم يعرفوا معامله الميكانيكية والمصطلحات العصرية ، التي هي سمة خاصة بكل عصر ، وانما عرفوا بفطرهم مَعَالِمَه العقلية الذاتية ، وألهمهم الله اياها الهاما . كما ألهمهم حرمة الشهور الحرم ، وهي ثابتة منذ أذن الله للماء أن يتجمد ليصير أرضا تطؤها قدم الانسان ، ويتوارى فيها بدنه .

قال تعالى : " إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١) " .

(١) سورة التوبة : الآية ٣٦ – والأشهر الحرم هي : رجب ، ذو القعدة ذو الحجة ، والمحرم ، وكانت الجاهلية تحرم فيها القتال حتى لا يعرض أحدهم لقاتل أبيه وابنه لو لقيه فيها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون لا يقاتلون فيها حتى نزلت " براءة " فأحل قتال المشركين فيها : ص ٢١١ هامش مصحف الشروق المفسر الميسر . طبعة دار الشروق بالقاهرة .



ثم ان حلف الفضول القرشي ، يعتبر أول مثل للنظرية الاجتماعية ، في مجتمع مكة كلها ، كما أنه يعتبر حلقة الوصل بين الحضارات الانسانية ، وانتقالها من اليونان الى أوربا . وهو يدل على أن العرب الجاهليين قد عرفوا الحضارة الاجتماعية بكل أنماطها وكامل أشكالها . وقد أضفى عليه الاسلام من المهابة والاحترام ، ما ضمنته نصوصه فقال عليه السلام : " ما كان من حلف في الجاهلية فلن يزيده الاسلام الا حدّة وشدة [1] " والشدة راجعة الى معنى التواصل والتعاطف والتآلف الاجتماعي ، فكأن الاسلام أضاف اليه الصلابة والاستقرار والدوام . وهذا معنى الشدة في الحديث الشريف .

بيد أن دراسة أثره في علم الاجتماع تقتضي محاولة جمع أطراف علم الاجتماع المعاصر ، ولو في صورته الحالية ، لنرى ما هو الأثر الجلي الذي تركه حلف الفضول عليه . وبالتالي نجعل المسائل التاليات مدار البحث :—

١ — تعريف علم الاجتماع .

٢ — أقسامه .

٣ — مناهجه .

٤ — أشهر مدارسه قديما .

٥ — أثر حلف الفضول فيه .

١ — تعريف علم الاجتماع :

سبق تعريف العلم فيما مضى من مقدمات ، ونأتي الى المضاف اليه فنقول : ان لفظ الاجتماع ضد الافتراق ، وهو يفيد في دلالته تَجَمُّعَ القوم من هنا وهناك كما أنه اسم لمكان اجتماع الناس فيه ، فاذا انضم الى المكان القوم كان

---

(1) مسند الامام أحمد : جـ١ ص ٣٢٩ وفي رواية عن قيس بن عاصم رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما كان من حلف في الجاهلية فتمسكوا به ، ولا حلف في الاسلام " — المرجع السابق جـ٥ ص ٦١ وأخرجه الطبراني أيضا أنظر : الجامع الأزهر في حديث النبي الأنور جـ٢ ورقة ١٥٠ .



المقصود به علم الاجتماع العمراني الذى نحن بصدد الحديث عنه ، والذى تجمعه صفات تميزه عن غيره ، وهو غير المجتمع كذلك .

ولفظ اجتماع من المصادر المشتقة ، وفعله اجتمع وهو ثلاثي مزيد بحرفين ، صحيح غير معتل ثرى مصدره فى الدلالة والصيغ ، ليّن فى الدخول الى مصادر أخرى وصيغ ، ويوصف به المذكر والمؤنث وهو من أسماء الجنس التى لامفرد لها ، ولكن لها الجمع ولو فى المعنى .

والاجتماع يوحى بانعقاد أمر ما ، لبحث موضوع ما ، يقوم به أصحاب الرأى وذو الحجى ، باعتبار ما أوكل اليهم من قيادة الأمة وحسن رعايتها . كما يؤكد على وجود أمة بعينها فى مكان بعينه وان كان اللفظ قادرا على اشتمال أمم متعددة . وأغراض مختلفة . هذا من ناحية الدلالة اللغوية .

أما الدلالة الاصطلاحية فيمكن تعريفه بأنه : علم يبحث فيه عن العمران البشرى مواقعه ومنابعه ، وما يُحقق فيه التكافؤ وبه يتم العدل الاجتماعى بين الأمم والأفراد ، وتنحصر فيه المسئولية الفردية من خلال تشريعات تحث على الوفاء بالعقود ، والموازنة بين ما للأفراد والأمم من حقوق ، وما عليها من التزامات ، بغرض تحقيق الأمن ، وذيوع السلام بين ربوع العمران البشرى كله دون بخس أو تطفيف ، وهو بهذا المعنى عند التخصيص يمكن تسميته الفلسفة الاجتماعية كما ظن البعض(١) .

٢ ـ أقسامه :

أ ـ فى العصر القديم :

المطالع لتاريخ علم الاجتماع ، والمتتبع لتطوره ، يلاحظ بصورة دقيقة وجود هذا العلم كفكر اجتماعى منذ أول وهلة هبط فيها آدم على الأرض قاطنا ، ومستخلَفاً ، وظل هذا الفكر يتخذ أشكالا متعددة كلما رحل الى قسوم ، أو

(١) الأستاذ / محمد عبدالله عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى ص ١٠٧ ط : دار الكتب المصرية .

تناول آخرون قضاياه ، والكل فى ذلك سواء ، اليونان والشرق الأدنى والأقصى ، وكلما تناوله قوم صبغوه بالسمة الغالبة لديهم ، وبما يدينون به أو يعتقدون ، من وحى السماء ، أو فكر الفلاسفة ، أو دين الحكماء .

حتى أمكن القول بأن علم الاجتماع يمكن تقسيمه فى الماضى الى :

١ ـ علم الاجتماع النبوى : لأن مصدره الأنبياء أو الالهى .

٢ ـ علم الاجتماع الفلسفى : لأن مصدره الفلاسفة .

٣ ـ علم الاجتماع العلمى : لأن مصدره العلماء .

٤ ـ علم الاجتماع النسكى : لأن مصدره الدين الوضعى كالبراهمة والزرادشتية ، والكونفوشيوسية الذين دانوا بدين من وضع العقل البشرى .

٥ ـ علم الاجتماع الخيالى : لأن مصدره خيال الحكماء ، ظهر ذلك فى ديانات الهند التى حاول أصحابها تحويل الانسان من بشريته الى شئ آخر حتى يكون مثالا لكل أتباعهم من متعبدين ومتنسكين ، كما ظهر فى الصين فى شكل وصايا وقيم لم يقدر لها النجاح ، وكذلك ظهر لدى اليونان بصورة أوسع فى جمهورية أفلاطون ومُثُلِه ومحاوراته التى فشلت منذ اللحظة الأولى لوضعها ، لأنها كانت مغرقة فى التخيل الفلسفى ، ومصادمة للطبيعة البشرية والأوضاع الاجتماعية .

ب ـ فى العصر الجاهلى :

شُغِل الجاهليون بحياتهم اليومية ، بداية من البحث عن لقمة العيش ، الى

كيفية المعايشة مع جيرانهم بوسائل السلم والدفاع عن النفس مرورا بِكَمٍّ هائل من العادات الاجتماعية التي تمثل نظريات متعددة بحيث لو قسمت لشغلت ألوانا شتى من نظريات الاجتماع الحديث بل ولاعتبرت أصولا لها ، من ذلك على سبيل المثال :-

(١) التعاون الأسرى : نشأ الجاهليون ، يرعى ذكورهم الابل والغنم والحيوانات المستأنسة ويصطادون غيرها ، وترعى اناثهم شئون المنازل بدوا وحضرا ، حتى كان الرجل يمثل جزءا من مصدر الرزق ، كما تمثل المرأة الجزء الثاني ، فهو يرعى الماشية ، وهي تحلب الضرع ، وتغزل الملابس وتُعِدّ المنزل لاستقبال ما يلقى عليه من أعباء ، كتربية الأطفال ، وتعهد المسنين ، وحياكة الأثواب ورقعها . فكانت صورة مُثْلى للتعاون الأسرى ، حتى في حالات الحرب ، دفاعا أو عدوانا ، وكانت المرأة تمثل صمام الأمن المتأخر لرجال القبيلة ، فهي ترعى الجرحى ، وتدفن القتلى ، وتشد أزر الرجل بأغنيات الوطنية ، وألحان الثأر ، وقد عرف تاريخ الجاهليين من ذلك الكثير ، ولا يقل شأن الأطفال عن ذلك ، الا بحكم سنهم وملكاتهم والامكانيات سلما وحربا .

بل وربما تخطت المرأة واجبها ، وانطلقت تمتطى صهوة جواد جامح ، ملثمة تدخل غمار الحرب فتخوضها ، وكم من خصوم ألداء ذاقوا كأس الموت على أيديهن ، وهذا ما حفلت بمثله الكثير من الآثار عند الجاهليين ، وفي صدر الاسلام . من ذلك " أم حكيم البيضاء بنت عبدالمطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوءمة أبيه (١) " وصاحبة جفنة حلف المطيبين .

وحزام المرأة التي ضرب بها المثل في الشجاعة الأدبية ، وصدق الحديث حتى صارت من الشواهد العربية فقالوا :-

اذا قالت حزام فصدقوها ∴ فان القول ما قالت حزام

(١) ابن هشام : سيرة النبي صلى الله عليه وسلم - ط : الشعب هامش ١٤٣ جـ١ تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبدالحميد .



والخنساء التى رثت أخاها صخرا ، وطالبت بثأره ، والمرأة الشهيدة أم الشهداء الاربعة فى الاسلام ، والمرأة الملثمة وغيرهن من نسوة العرب اللائى قمن بواجبهن الأسرى على أكمل ما يكون ، حتى صار عملهن مدعاة للاحتفاء بهن وصرن صورة مشرقة من مظاهر التعاون الأسرى ، والنظرة الاجتماعية الواسعة . وكان حلف الفضول علامة بارزة على التقدم الاجتماعى فى هذه الناحية بما تركه من أثر واضح .

(٢) التكافل الاجتماعى : وهو الذى عرفه الجاهليون فى ظل سدانتهم للبيت ، والقيام على واجبات مرتادبه ، حتى " كانت الرفادة خَرْجًا تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها ، الى قصى بن كلاب فيصنع به طعاما للحاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد (١) " ولعل فهمهم للتكافل الاجتماعى كان نابعا من نظرة دينية شاملة للحياة الاجتماعية ، يعبر عن ذلك قول قُصَىّ الذى فرض خراجا على قريش للحجاج حين خطبهم فقال :-

" يا معشر قريش انكم جيران الله ، وأهل بيته . وأهل الحرم . وان الحجاج ضيف الله وأهله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة . فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم ففعلوا (٢) "

ولعل صورة ذلك التكافل كانت بارزة فى ظل البيت الحرام أكثر من غيره ، حتى إن القائمين على خدمته ، كانوا يقومون بهذا التكافل بوازع دينى يخالطه فكر اجتماعى متطور ، وربما يسمى الواحد منهم بما يقوم به من أعباء ، أو يوصف بها حتى تصير علما عليه بالغلبة ، من ذلك عمرو بن عبد مناف ، والذى تذكر الآثار عنه ، أنه كان يهشم الخبز الجاف ، ويخلطه بالحساء حتى يصير ثريدا فيقدمه للحجاج بمكة ، ولما غلبت عليه تلك الفعلة الخيرة ، صارت اسما عليه لا يكاد

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ص ١٤١ .
(٢) المرجع السابق : ص ١٤١ ، ١٤٧ وينسب ابن اسحق القول الى هاشم .

يعرف الا بها . فصار هاشما . وحفظت ذلك أشعارهم . من ذلك ما وقع له من مدح ، لأنه تحمّل عبء إطعام أهل مكة والحجاج عامين كاملين ، من سنوات عجاف . قال الشاعر :-

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ∴ قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت اليه الرحلتان كلاهما ∴ سفر الشتاء ورحلة الايلاف (١)

ولا يشعر بالتكافل الا من عالجه وعاناه . لذا نجد قصائد الرثاء العصماء تنهل اذا ما مات واحد من أولئك المتكافلين ، كما نرى قصائد المدح تسبغ الفضائل ، وكان بنو عبد مناف يتوارثون ذلك اللون الجميل من التكافل . فلما مات عبد المطلب بأرض اليمن قام أحد رجال العرب يبكيه ، ويودع فيه الكرم والشجاعة والاحسان فقال :-

قد ظمئ الحجيج بعد المطلب ∴ بعد الجفان والشراب المنثعب
ليت قريشا بعده على نصب (٢)

ومثل ذلك كثير مما حوته الآثار وحفلت به الأخبار . بما يؤكد سبق العرب الجاهليين لغيرهم فى نظرتهم الشاملة الى المجتمع كأفراد وأمة ، يقودهم فى ذلك كله ، عراقة أصل وتلادة مجد وصلابة موروث ، وسلالة كرم . فنظروا الى جوانب العمران البشرى التى تحيط بهم وتعاملوا معها ، بحكم ظروفهم وما تمليه عليهم حياتهم فى كل شئ سباقين ، والى الخير متقدمين لم يحجبهم عن توجه الأنظار ، الا نظرات متجنية ، نظرت الى جوانب السلب فقط عندهم ، وأهملت بقية شئون حياتهم ونكتفى بهذين المظهرين خشية الاطالة .

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم : ص ١٤٧
(٢) المرجع السابق : ص ١٤٩



قيادته فى العصر الجاهلى

أرض العرب مهبط الوحى من قديم الزمان ، وما خلا عصر من الحنفاء حتى جاء الاسلام ، لذا نرى أن الاجتماع كانت له قيادات متعددة . أهمها :-

١ - قيادة دينية :

تتمثل فى طريقة الحنفاء ، الذين شغلهم حب الله ، وتعمقا مخلوقاته ، فتعلقوا بالخالق العظيم على أوسع نطاق ، وهؤلاء كانت قيادتهم داخل الجزيرة العربية تتمثل فى شكل نصائح دينية وحكم وأمثال ، تصاغ فى صورة عملية من المحافظة على حق الأجنبى والدفاع عنه . حتى عُرف عندهم حق اللجوء السياسى منذ القديم ، وهو ماعرف باسم "الجوار" وكان بعض المعروفين يدخلون فى جوارهم من يطلب ذلك ، ويفردون عليه حمايتهم له لمجرد طلبها مهما كان موقفه.كما كانت تفعل ذلك بعض القبائل . وقد أجار مطعم بن عدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت تلك القيادة الدينية تملك سلطانا محدودا ، لكنه مؤثر جدا ، فلديهم علم بالكتب السابقة ، وعندهم يلتمس التعبير عن الرؤى والأحلام ، ومنهم يؤخذ الرأى فى الميراث ، وعلم الآثار ، وهم الذين يعقدون الأنكحة ، ويباركون الزواج الرفيع ، اذا تحدثوا أنصت اليهم ، واذا أمروا أطيعوا فى أوامرهم ، واذا استشيروا قبلت تصوراتهم ، من هنا كانوا محل نظر واحترام .

وبالتالى فان هذه القيادة جعلت الاجتماع عندهم غادة أحيطت بسرادق التعاون والتكافل وأشجارها الكرم والشجاعة والعفة والمروءة ، كما أن ينابيعها جاءت احترام الانسان لذاته ، ولمن يحط رحاله عندهم أو يحطون ، ولم تترك مكانا لسافكى الدماء أو هاتكى الأعراض ، أو سارقى الأموال ، حتى كانت قيادتهم بحق ، صورة راقية فى الناحية الاجتماعية .

٢ ـ قيادة اقتصادية :

وهى قيادة من نوع مادى صرف ، الأموال هى الغرض الأسمى ، ورحلة الغدو والرواح هى أرض العرض والطلب ، وكل شئ ميزانه عندهم بقدر ما يحقق من مكسب ، أو تلحقه من خسارة ، فلا يهمهم أن يكون المجتمع متكافلا أم لا . كما لا يعنيهم أن تكون التجارة منقولا أو معقولا (١) ، فمن منقولاتهم التمر والجلود والغزل والوبر والأدم . ومن معقولاتهم الحيوان والرقيق ، اذا دلفوا الى ساحة العرض أعدوها .

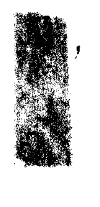
وهؤلاء لا يبحثون الا عن الربح الوفير من تجارتهم المصدّرة ، كما يعنيهم بالدرجة الأولى ، أن يكونوا على قدر من الدهاء ، وأن يتحلوا بنصيب وافر من الفطنة والذكاء عند ما يستوردون ، فلا تقف عندهم تجارة ، ولا تلحقهم بسببها خسارة ، يغلب عليهم الترحال الدائم ، والاستقرار القليل ، يحتكرون بضاعتهم ليحققوا بها الربح الأعلى . من هنا كانت نظرتهم الى المجتمع ، بقدر ما يتاح لهم من فراغ .. وما يتمكنون معه من مواجهة للأمور .

وبالنظرة اليهم نجد أنهم تحملوا نقل عاداتهم الى أمم شتى . فأثروا فيهم ، وطبعوهم على الكرم والشجاعة ، وتأثروا منهم بالسلبية الفردية والتراجع عن المشاركة فى اتخاذ قرار الحرب ، وان كانوا للسلم أجنح ، اللهم الا اذا أيقنوا أن قوافلهم لا محالة تتعرض للدمار . ومع أنهم تحملوا النصيب الوافر فى نقل ثقافتهم الى الأمم التى كانوا يتاجرون معها ، الا أنهم لم يتمكنوا من نقل ثقافة غيرهم اليهم . اللهم الا النذر اليسير . مما عالجه بعضهم على مشقة واصطبار .

---

(١) نعنى بالمعقول هنا ما يربط برباط يعقله أى يمنعه من الحركة الارادية ، ويحجب عنه التصرف الذاتى كالابل تعقل فى مقدماتها حتى لا تتمكن من الوقوف . ولا يكون عقالها الا وهى رابضة على الأرض . والرقيق كذلك على سبيل التشبيه .





من هنا فان علم الاجتماع عندهم : اصطبغ بلون اقتصادى فقط، يقوم على المهارة فى عملية تناول البضائع، وحاجة السوق والنوعية المطلوبة، أما غير ذلك فلا، وهؤلاء لم يكن لهم تأثير كبير، فى ظل دولة الجاهليين المتسعة التى شملت الجزيرة العربية كلها . فى الناحية الاجتماعية أو الفكرية أو الثقافية

٣ — القيادة الجماعية :

وهى قيادة يشترك فيها الحنفاء بمشورتهم، والأثرياء بتجارتهم، والفضلاء بوجاهتهم، والفقراء بحاجتهم، والغرماء بديونهم، حتى الصعاليك بضجيجهم وقلتهم . وهى وان كانت قيادة مختلطة فيها من التناقض ما لا يمكن القضاء عليه، الا أنها فى حالات الفزع تتحد كلها، وتكون كلمتها واحدة ويظهر من الفقراء متعففون يدافعون عن العربين بما بقى فى قلوبهم من دقات كما برز الكرم فى أصحاب الأموال فيتنازلون عنها، ويسقطونها من كاهل الغرماء ونرى الصعاليك يعودون الى ساحة طفولتهم، يتذكرونها، ثم يتحالفون جميعا على أن يكونوا تحت قيادة واحدة، ليواجهوا خطرا محددا . يتساوى فى ذلك الأمراء والأرقاء [1] .

وهؤلاء نظرتهم الى المجتمع نظرة الأبناء الى والديهم، كل حسب ثقافته وملكاته، وادراكات وبالتالى كان علم الاجتماع عندهم : يتركز فى الدفاع عن الوطن، والمحافظة على أمنه وسلامته لا ينظرون الى ذواتهم، من هنا تتلاشى الأنانية والأثرة وحب الذات، ويبدو التعاون والتكافل فى أدق صوره، لكنه تعاون مؤقت، ونظرة معدة لمواجهة حدث معين . فاذا انتهت الأزمة عادت الأمور كما كانت بكل ما تعنيه من فوارق ومعاناة .



وأولئك لا تستمر أحوالهم ولا يستفيد الاجتماع منهم وبالتالى فان تأثيرهم محدود . لا أثر يتخلف عنه، ولا خلف يستمر به، فلا يمكث أن يتحول المجتمع الى ماكان عليه سلفا . بل ربما ازداد الامر سوءا . ومن هنا فان نظرتهم الى جوانب

(1) حدث ذلك مع عنترة بن شداد مثلا . وامرئ القيس .

علم الاجتماع ونظرياته ، لاتخترق كثبان الرمال ، ولاتغوص فى أعماق الرجال ٠ انما تنهار فى أقرب فرصة وتعود القطيعة ، ويزداد الجرح ولاالتئام ، وهذا مالايذكره علم الاجتماع ٠



قيادته فى الاسلام

تمهيد :

شغلت الأسرة فى الاسلام مكانا واسعا ٠ سواء كانت بأفرادها أو الجماعات وجاء ذلك فى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وأحكام الأسرة فى الاسلام لايدانيها أحد فيها . بدءا من طرفى الأسرة ، مرورا بنكاحهما وانجابهما وتربيتهما الأولاد والحفدة حتى أقرب الأجلين ٠ وعنى بها عناية كبيرة ، لأنها التى يقوم عليها المجتمع كله ٠ وأنها اللبنة الأولى فيه والأساس له فاذا سلمت كان قويا سليما متماسكا ٠

وجاء الباحثون فى الاسلام من المسلمين وغيرهم فبهرهم جمال القرآن الكريم ، وبهاء السنة المطهرة فى تناول المجتمع بداية من أفراده ونهاية به ككل ، فقاموا يبحثون فيهما ويعملون على ابراز ذلك كله فى موضوعات مستقلة ، أو بحوث منفصلة (1) ، بل ان بعض الهيئات قامت بنفس الدور (2)

---

(1) الأمومة فى القرآن والسنة المطهرة للزميل محمد السيد محمد الزعبلاوى — المدرس المساعد بكلية أصول الدين لدرجة الماجستير سنة ١٩٨٠م وقد حصل عليها بتقدير ممتاز ٠ والبحث بكلية أصول الدين بالقاهرة ٠

(2) الأمومة فى الاسلام : المؤتمر العالمى الاسلامى للأمومة المركز الدولى الاسلامى للدراسات والبحوث السكانية بجامعة الأزهر فى الفترة من ١١ — ١٣ ديسمبر ١٩٧٨م ومن قبله كان " مستقبل الطفل فى العالم

والبعض الآخر جعل بيان ذلك من المقررات الدراسية التي يشرف عليها [1] .

واتسعت دائرة البحث لتشمل كل جوانب المجتمع ، من علاقات الأفراد الى علاقات الأمم والشعوب ومن البحث في دائرة الأسرة ، الى الحديث عن السياسة والثقافة والتجارة والاقتصاد وسلطة الحاكم ومقدارها ، وصورة العدل ومظاهره ، الى سلطة القاضي ، ومن الناحية التشريعية الى السلطة التنفيذية ، كل ذلك من خلال منظور اسلامي ، مصدره القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، ومعهما بقية أصول التشريع في الاسلام . القياس . الاجماع . الاجتهاد . المصالح المرسلة . الاستصحاب .

ولم يقف الأمر عند الحد العمراني ، بل تحدث عن البر والبحر ، حلهما والحرمة ، ملكيتهما وعدمها ، وتعداهما الى الفضاء الخارجي ، وراح يرسم صورة مُثلى واقعية لما يجب أن يكون عليه الاجتماع العمراني في كل مظاهره ، وهذا يستلزم المزيد من الكتابة ، لكنا سنضع أمثلة فقط .

١ ـ العدل الاجتماعي :

أكد الاسلام على حماية الاجتماع العمراني ، وأولاه عناية كبيرة ، فعمل على تحقيق العدل الاجتماعي بكافة صوره ، فحارب الظلم الاجتماعي ، والذي كانت المرأة فيه/وهي نصف الأسرة،تعاني الوأد ، لا لسبب الا أنها أنثى ، وأنها محل للجريمة ، وأنها مهيضة الجناح لاتقاتل الأعداء ، بل هي من سبي المتاع ، الا أن الاسلام قرر محاربة ذلك الظلم ليتحقق العدل وكان من مظاهره مايلي :ـ

أ ـ فرض المساواة :

ونعني بها المساواة بين الرجل والمرأة في المسئولية الشخصية ،

= الاسلامي " والذي سبقه كان " مكانة المرأة في الأسرة الاسلامية "

(١) من ذلك أن أحكام الأسرة تدرس في كليات الشريعة والقانون وكليات الحقوق وان كانت بصورة مبسطة في العصر الحاضر .

" فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (١) " ..

المساواة فى تقسيم الأعباء ، فالرجل للكد والكفاح والمرأة للمنزل والأولاد وكل يتحمل نصيبه بقدر امكانياته وبحكم ما وهب الله كلا منهما فالمساواة قاسم مشترك حتى فى الطهارة مما يجعلها فيصلا فى كل الحقوق وكافة الواجبات وما يؤكد ذلك أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاما ٠ قال : يغتسل وعن الرجل يرى أن قد احتلم ولا يجد البلل ٠ قال : " لا غسل عليه " فقالت أم سليم : المرأة ترى ذلك أعليها غسل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم ٠ انما النساء شقائق الرجال (٢) " ٠

المساواة فى طلب الفقه ومجالس العلم ، وما يترتب على ذلك من انقطاع ومدارسة ، لكن فى حشمة ووقار ، ودون خضوع بالقول ، أو ميوعة فى الحديث ، أو خلوة محرمة تحت أى اسم كان ٠

وقد كان من النساء المحدّثات كما كان من الرجال ، وكتب السنة فيها من ذلك الكثير ، وقد ذكر الامام الحافظ الذهبى فى كتابه " ميزان الاعتدال " عددا من راويات الحديث النبوى الشريف ٠ وقال عن المرأة : " وما علمت من النساء من اتهمت ٠ ولا من تركوها " كما ينسب الى الامام الحافظ المحدّث الكبير ابن عساكر القول : " تلقيت علوم الحديث عن بضع وثمانين من النساء " وان كان له من الشيوخ الرجال العدد الكبير ٠ ويكفى فى مساواتها للرجل ، قول الرسول الكريم

---

(١) سورة الزلزلة : الآيتان : ٧ ، ٨

(٢) كشف الخفاء : جـ٢ / ٢٨ ٣ حديث رقم ٨٥٧ وأبو داود فى كتاب الطهارة باب فى الرجل يجد البلة فى منامه جـ١ / ٥٤ وابن ماجة فى أبواب الطهارة حديث رقم ٦١٢ وقد ذكر القصة دون الحدث وجامع الأحاديث للسيوطى جـ٢ / ٣٨١ والامام أحمد فى مسنده جـ٦ / ٢٥٦ ٠

صلى الله عليه وسلم : " رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخط الوالدين (١) " وصور المساواة كثيرة يضيق عنها الحصر . ولا شك أن الوالدين هما الذكر والانثى ، ولم نذكر الرجل لأنه فى كل ما مضى صاحب الحول والطول . وبالتالى مكانته فى المجتمع معروفة الا من شذ .

ب ـ الحرية :

حجرت بعض الأعراف على تصرفات المرأة وهى ركن جوهرى فى الاجتماع العمرانى ، وساموها العذاب ان هى تأبت على عادات قومها ، وربما ساقوها الى المقصلة ، أو ألقوها فى غياهب الجب ، فحرموا الأسرة من امكانية ركن هام فيها ، وقتلوا فى الأنثى ملكاتها ، وكأنها عبد يباع ويشترى ، ومع هذا توطأ وتحمل وتلد وترضع ، وربما حرموها أولادها ، وأجبروها على رضاعة غيرهم والعناية بهم (٢) .

بل أجبروها على أن تسلم نفسها لرجل لاتطيق العشرة معه ، ينعم بجسدها وتشقى بوجودها تحته.من هنا كانت المرأة دمية ، حتى اذا مات زوجها ، كان من حق أبنه أن يلقى عليها ثيابه ، فيتزوجها بعد أبيه دون رغبة منها ، أو صداق يدفع لها ، وربما ألقى ثيابه عليها ولايتزوجها وربما تكون فى مقتبل العمر ، فتظل تكتوى بنيرانا لانتظار ، ويحرق بدنها بسعير الإلف الفاسد ولاتنطفئ جذوتها المتقدة فى فؤادها الموجج .

وكم من أنثى دفعت الى هذا المصير ، فلما لم يعضلها أحد ، خلعت عن نفسها لباس الحياء وانطلقت تعب من كؤوس الرذيلة حتى الثمالة . وماهى بالواصلة الى حد النشوة ، ولاهى نالت حظ الجوارى الكنسه وهى فى الوقت ذاته ، نصف المجتمع ، وركن أساسى فى الأسرة فلايكون لها الا أن تسلم الى

---

(١) رواه الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) راجع جمهورية أفلاطون لترى الفكرة الخيالية ، والمرضعات عند العرب الجاهليين .

السوق ، ليجرى عليها المتنافسون أقداحهم والدراهم .

فلما جاء الاسلام ، نظر للمرأة على أنها نصف المجتمع ، فمنحها الحرية فى أمورها التى لاغنى لها عنها . منها :ـ

** الحرية فى اختيار الزوج :

ولم يكن مفهوم الحرية غير دقيق ، وانما جعله عليه السلام واضحا فى قوله صلى الله عليه وسلم : " لاتنكح الأيم حتى تستأمر ولاتنكح البكر حتى تستأذن . قالوا يارسول الله . وكيف إذنها ؟ قال أن تسكت[1] " فاذا قيل ان القاعدة عند الشافعى رضى الله عنه ، أنه " لاينسب للساكت قول " وبالتالى فان سكوت البكر لايكون اذنا . قلنا ان هذه القاعدة ، خرج عنها صور منها أن " البكر سكوتها فى النكاح اذن للأب والجد قطعا ، ولسائر العصبة والحاكم فى الأصح[2] " والثيب اذا سكتت عند استئذانها فى النكاح لايقوم سكوتها مقام الاذن . وبالتالى فان حرية المرأة فى اختيار الزوج أمر مفروض ومقرر فى الشريعة الاسلامية .

" ولم يسمح الاسلام ـ بأى نوع من الاكراه ، ولاممارسة أى من ألوان الضغط العملى أو الفكرى على الفتاة ، يستوى فى ذلك أن تكون بكرا أو ثيبا .. فان الزواج يقوم على عاملين احدهما مادي ، وهو أن يكون الزوج كفأ . ذا قدرة على تحمل أعباء الحياة الزوجية ، وهذا العامل يستطيع الأولياء ادراكه والاستقلال به ، والعامل الثانى نفسى بحت ، وهو مالايستطيع أحد أن يدركه غير الزوجة نفسها . وهذا العامل أكثر أهمية من الأول ، اذ يمكن



(١) فتح البارى : جـ١١ ص٩٧ كتب النكاح باب لاينكح الأب وغيره البكر والثيب الا برضاهما .

(٢) الامام جلال الدين عبدالرحمن السيوطى : الأشباه والنظائر فى قواعد وفروع فقه الشافعية ص ١٥٨



أن يكتفي بالشئ القليل حتى يوسع الله عليهما من فضله (١) " .

بل ان الاسلام عالج مشكلة الاكراه على الزواج ، من زوج معين ، وأعطى للزوجة الحق في رفض النكاح ، ولو أوقعه ولى الأمر فمن ذلك أن " الخنساء بنت خزام الأنصارية قد زوجها أبوها وهي ثيب على كره منها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرد نكاحه (٢) " . يستوى في هذا الحق البكر والثيب . وحين جاءت الخنساء بنت خزام المذكورة تسأل رسول الله ، وتعمل على فصم عرى النكاح التي أكرهت عليه أو خدعت فيه وقالت : " إن أبي زوجني من ابن أخيه . وأنا لذلك كارهة . فقال الرسول الكريم لها : أجيزي ماصنع أبوك ، فقالت " مالى رغبة فيما صنع أبي . فقال عليه الصلاة والسلام : اذهبي فلا نكاح له انكحي مَنْ شئت . فقالت : أجزت مافعل أبي . ولكني أردت أن يعلم الناس . أن ليس للآباء من أمور بناتهم شئ (٣) " . انما أرادت بذلك بيان الحرية التي كفلها الاسلام للمرأة في اختيارها الزوج الذي يقاسمها الحياة ويشاركها فيها .

** الحرية في ادارة الأموال :

وهنا يظهر العدل الاجتماعي جليا ، فكما أن الرجل له الحق في ادارة أمواله ، فكذلك المرأة ، أمرها الاسلام أن تحافظ على مالها ، وأن تصونه وتستثمره ، ولم يجعل للرجل عليها في ذلك سبيلا ، اللهم الا اذا كانت تحمل ظروفا خاصة توجب الحجر عليها ، وعدم منحها الحق في بعثرة أموالها واضاعتها ، والرجل في هذه الناحية كذلك .

وتبدأ حريتها في ادارة أموالها مستقلة ، من صداقها الذي يمنحها

---

(١) الزميل / محمد السيد محمد الزعبلاوى : الأمومة في القرآن الكريم والسُّنة المطهرة ص ٩٦ بايجاز .

(٢) فتح البارى : جـ١١ ص ١٠٠ نقلا عن المرجع السابق .

(٣) الأمومة في الاسلام : المركز الدولى الاسلامى للدراسات والبحوث السكانية — جامعة الأزهر — ص ١١٢



الرجل اياه ، هبة منه ، ونحلة لها عنده : لقوله تعالى :

" وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً " .

فاذا ما أرادت المرأة أن تحتفظ به ، كان لها ، واذا رغبت فى أن تستثمره كان لها ، وحتى اذا أرادت أن تهديه جزءً منه ، لم يقف الاسلام فى طريقها ، بل شجعها ورسم لها الطريق اليه ، فى حرية محفوفة بالأمن مصانة بالأمان

" فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (١) " .

وليس الصداق وحده ، بل كل مال يؤول اليها ، من ميراث أو هبة أو غيره ، لها الحق فى الاحتفاظ به وادارته ، شريطة أن لا تقصر فى واجباتها كزوجة ، وأن يكون عملها باذن زوجها ، وأن يكون فى مال حلال ، وتجارة عند الله مقبولة ، وأن لا تخرج سافرة أو بثياب تصف أو تشف ، وأن لا يكون فى حديثها خلاعة أو ليونة تدفع مرضى القلوب الى الطمع فيها ، وأن لا تقع فى خلوة ينهى عنها الشرع الشريف ، فاذا تفادت ذلك كان لها الحق فى ادارة أموالها ـ وكفلت لها الحرية فى ذلك .

ومع هذا اذا وقع زوجها فى معسرة ، لم يكن له الحق فى أخذ مالها رغما عنها ، بحجة الانفاق منه على الأسرة التى هى جزء منها ، وانما منحها الاسلام الحرية المطلقة ، فى أن تعطى زوجها أو لا . وأن يكون دينا أو هبة أو رهنا . أو غيره من وجوه المعاملات الجائزة شرعا . وكذلك منحها الحق فى عدم اعطائه إن هى رأت ذلك فاذا أعسر بالانفاق على أسرته . أجاز لها الاسلام طلب فسخ عقد النكاح للاعسار بالنفقة وبالشروط التى أفاض فيها علماء الأصول واختلف حولها الفقهاء (٢) .

---

(١) سورة النساء : الآية ٤

(٢) راجع حاشية الدسوقى جـ٢ ص ٤٦٠ والمقنع جـ٣ ص ٣١٥ ، ومغنى المحتاج جـ٣ ص ٤٤٢ : " وهم يرون جواز التفريق بالاعسار مطلقا " .

* والمحلى لابن حزم جـ١٠ ص ٩٢ ومن معه " وهم يرون عدم



ولاشك أنها ان أنفقت من مالها ، كانت مثابة عند الله ـ طالما عجز زوجها عن الوفاء بكل التزامات الأسرة رغم بحثه ومجهوده وكده ٠ وعدم تواكله على مالزوجه من مال أو متاع أو عتاد ٠ وسواء كان ذلك مقابل دين يدان به لها ، يتم الوفاء به عند الميسرة أو هبة لاترجو منه نوالها ، أو تفريج كربة تسترد بعضه وتترك الآخر ـ وكان ذلك مدخرا لها في دار البقاء عند الله تعالى ٠

من هنا فان حرية المرأة في ادارة أموالها ، نوع من العدل الاجتماعي في الاسلام الذى لم تعترف به الديانات الوضعية ، ولم تألفه طبائع قوم حادت بهم الطريق القويم ٠ ولذا كان لها أن تدير أموالها ، وأن تتصدق بماتواه منها ، وأن تكلف باخراج نصيب الزكاة فيها ٠ وأن تتحمل عبأ الخراج وحجم الضرائب العامة ، وأن تساهم في اعداد الجيش ، كل ذلك تحت رقابة قويمة ، لاتخرج عن قواعد الشرع الشريف ، ولاتنأى عن مبادئه السليمة ٠ وعلى هذا تقاس الحرية ونظامها للمرأة في الاسلام بغيرها مالم نذكره

٢ ـ العدل الوقائي :

ونعني به مايحفظ على الأسرة صحتها ، ويصون لها كرامتها ، ويقيها العوادى ، ويزيل من طريقها العراقيل ، فتنهض من عثرتها ، وتجبر من كبوتها والرجل والمرأة في ذلك سواء ، لا جناح على أحد الطرفين ان حافظ على الآخر ، لأنه واجبه المنوط به ، بداية من الابتعاد عن مخالطة العدوى ، والانتهاء عن ممارسة مايوقع الأسرة في ضائقة المرض أو أحضان الفقر ٠ أو الخُلق الذميم أو ينفي تعاليم وسلوك الدين ٠



= التفريق بالاعسار وهم أهل الظاهر والحنفية ٠

* وكذلك ابن القيم في زاد المعاد : ج٤ص ٣٠٤ ومن معه ٠ ويرى التفريق جوازا اذا وقعت المرأة في تغرير من الرجل ، أوعجزت عن أخذ مايكفيها ٠

واذا كان دور الرجل فى ذلك واضح . فان حديثنا هنا عن دور المرأة والمستضعفين من الرجال والنساء والأطفال . واذا كان الاسلام قد أمر بالوقاية فقال عليه السلام فيما رواه عنه أبو هريرة رضى الله عنه : " فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد (١) " وقال تعالى :-

" وَلَاتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ (٢) " .

فان دور المرأة هنا بارز الى الحد الذى يؤكد سبق الاسلام لكل النظم فى هذا الميدان ، وهاك بعض أمثلة :

أ - التعليم ومحاربة الجهل :

الجهل مرض اجتماعى خطير، يؤدى الى هلاك الأمم والأفراد ، وقديما قيل ، عدو عاقل ، خير من صديق جاهل ، ومن هنا وجدنا الاسلام يأمر بالعلم ويحض عليه ، بل ويجعل درجة العلماء أرفع منزلة وأسمى مكانة ، فيقول تعالى : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ . إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٣) " .

وقوله تعالى :

" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (٤) " .

وفى الحديث الشريف عن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضل العالم على العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (٥) "

---

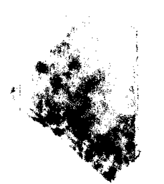
(١) صحيح البخارى كتاب الطب باب الجذام جـ١٠ ص ١٥٨ حديث رقم ٥٧٠٧ ، والامام أحمد فى مسنده جـ٢ ص ٤٤٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٩٥

(٣) سورة الزمر : الآية ٩

(٤) سورة المجادلة : الآية ١١

(٥) أخرجه أبو نعيم فى الحلية : أنظر الفتح الكبير بضم الزيادة الى الجامع الصغير جـ٢ ص ٢٦٨ ، وأخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه عن أبى الدرداء وهو حديث طويل وتعددت فيه الروايات .





وقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن أبوأمامة الباهلى : " فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم (١) " .

ولأن الجهل مرض ، يؤدى الى الداء المستعصى ، أمر الاسلام بالوقاية منه ، ولايكون ذلك الا بالعلم الذى يقى المجتمع من الهلاك ، فلايتعرض أبناؤه لبراثن الفساد ، ولايتحطم كيانه بفعل الجهل وأعوانه ، وكم من أمة أنتزع قيادها جاهلون متسلطون ، فأورثوها الفقر والمرض وأسلموها الى قيادة مستضعفة ، تذل لغير الله ، وتستذل أبناءها فى غير ما أمر الله ، ولايحق بها الا مكر سئ ، ينقلها من الذكر الى الأثر ، ومن القمة الى الهاوية

والمرأة والرجل فى طلب العلم سواء ، قضية لاخلاف حولها ، اذ هما طرفا المجتمع ، وهما البنية والأساس ، وعليهما المعول والرجاء ، وفيهما يتعلق للأمة الأمل . من هنا كان أمر الاسلام لهما بالتعليم ومحاربة الجهل أمر وقائى لامفر منه ، كما لاغنى لأمة عنه . ويكفى المسلم القول الشريف " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين (٢) " .

والخطاب فى كل هذه النواحى ، الهامة والأساسية لبناء المجتمع ، للرجل والمرأة على حد سواء ، حتى تأكد لذوى الألباب ، أن العلم وطلبه وتعلمه وتعليمه ، حق جوهرى من حقوق الحياة يكفله الاسلام لكل فرد فى الأسرة المسلمة ، داخل اطار من ملكات كل فرد ، وفى حدود الامكانيات الشرعية ، التى وهبها الخالق العظيم جل وعلا ، لكل واحد بذاته .

بل ان بعض كتب الآثار ، تحدثت عن مجالس العلم ، والتى كانت مخصصة للمرأة فقط ، لتفقه دينها ، وتزداد معرفة بربها ، وتحفظ حقوق أسرتها ، وترعى شئون زوجها وأولادها وبالتالى ، أوصدت الأبواب أمام الغواية ، وأحكمت الاغلاق فى مواجهة الشيطان ، ولم ينقلب الحال فى هذه الأيام ،

(١) سنن الترمذى أبواب العلم باب فضل الفقه على العبادة جـ٤ ص ١٥٤ حديث رقم ٢٨٢٦ .

(٢) رياض الصالحين : كتاب العلم ص ٤٤٩ .



الا بفضل دعوات الضلال ، التي دفعت المرأة الى ميدان لم تخلق له ، ميدان العرى البدنى والدينى والخلقى . فتحطمت المرأة ونقضت غزل الأسرة .

ب - تهذيب الرغبات وتنميتها والتوجيه :

اعتبر الاسلام الأسرة وحدة متكاملة متجانسة . كل فرد فيها يتحمل العبء الأمثل ، فى التكليف الانسانى والتكييف الذاتى . ومنح كل عضو فيها الحق فى اشباع رغباته ، لكن فى اطار منظم ، وبشكل سليم وفى حدود معينة ، لاتجاوز الفرد لغيره اعتداء . وسواء كانت تلك الرغبات ضرورية ، كالمأكل والمشرب والغريزة . أو ثانوية كاشباع الهوايات ، وتنمية المواهب والقدرات .

** فاشترط فى المأكل أن يكون حلالا ، من حيث ذاته ، ونظر الشرع اليه ، ومن حيث سلامة مصدره ، وأمر كل أفراد الأسرة بالسعى اليه ، كل بقدر ماتيسر له ، فقال تعالى :-

" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (1) " .

وقال تعالى :-

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (2) " .

وقوله تعالى :-

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (3) " .

---

(1) سورة الملك : الآية ١٥

(2) سورة البقرة : الآية ١٦٨

(3) سورة البقرة : الآية ١٧٢

ولما كان المأكل والمشرب، عليهما يعتمد الانسان فى الحياة، كأسس جوهرية لغذاء البدن فان الاسلام قد أشاد بالباحثين عنهما حلالا، - وبغرض طاعة المولى الكريم، والمحافظة على أسرة مسلمة قوية قويمة، يشب أفرادها على طاعة الله والخوف منه، والقيام على تعاليمه والامتثال لأوامره، والاحسان لتكاليفه . فيقول الرسول الكريم: " من أمسى كالًّا من عمل يديه أمسى مغفورا له(١)" وعن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ماأكل العبد طعاما أحب الى الله تعالى من كدّ يده، ومن بات كالا من عمله بات مغفورا له(٢) " . يتساوى فى ذلك الرجل والمرأة، والطفل والشيخ المسن . مادام ابتغاء مرضاة الله . وحين شد الرسول صلى الله عليه وسلم على يد الرجل وقال: " هذه يد يحبها الله ورسوله(٣) " كان ذلك بشارة لكل الباحثين عن الحلال فى المأكل والمشرب بأن الله سبحانه وتعالى يحبهم ورسوله صلى الله عليه وسلم كذلك . فأين هذا مما نلاقيه اليوم باسم التمدين والحضارة ؟ .

** الرغبة البيولوجية : تملك المرأة من وسائل الاغراء ما يكمن فيها . وهى فى حد ذاتها ينظر اليها على أساس أنها تتمكن من اشاعة الدفء العاطفى لدى الرجل، وأنه اذا استجاب لاغرائها تمكن من اشباع كل النواحى البيولوجية لهما معا . من هنا نظم الاسلام تلك العلاقة، وجعلها القاسم المشترك فى التنظيم بينهما، فأوجب وجود عقد نكاح شرعى، لتقام على أساسه علاقة شرعية بيولوجية، يحكمها الاسلام بنصوصه . بما ينميها ويهذبها

---

(١) مجمع الزوائد ج٤ص ٦٣ رواه الطبرانى فى الأوسط . قال عبدالله بن عباس رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . الحديث..

(٢) منتخب كنز العمال ج٢/ ٢٠٩ رواه ابن عساكر .

(٣) حديث شريف .

ويرقيها . لدى الطرفين معا . فتحصل السعادة ويتحقق الأمن العائلى ، ويرفرف الهدوء الأسرى . واتخذ لذلك طرقا متعددة . منها :—

عقـد النكـاح :

جعله الاسلام مسألة مهمة ورباطا مقدسا . فلاتجوز الخطبة على الخطبة وهذا احترام لحق سابق يجعل عقد النكاح بعده موثقا . وكلاهما حر فى اختيار الطرف الثانى ، وأنه ليس مجرد صيغة قانونية ، أو اجراء شكلى ، يقوم به الحاكم أو من ينيبه . وانما هو " رباط مقدس لاينبغى التوسع فى مجوزات حله ونقضه . بل يقتصر فيه على مايحقق المصلحة ويدفع الضرر (١) " والرجل والمرأة فى ذلك سواء .

فاذا كان المتعارف أن الرجل هو الذى يحق له الاختيار ، فان هذا تعارف ليس صحيحا كله ، وقد قص القرآن الكريم علينا حق المرأة فى اختيار زوجها ، ومحاولة تدعيم وجهة نظرها ، والابانة عن رغبتها فى خطبته :
" قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىّ الْأَمِينَ (٢) " .

وينتشر فى كتب السيرة النبوية ، أن السيدة أم المؤمنين " خديجة بنت خويلد " خطبت النبى صلى الله عليه وسلم لنفسها ، واتخذت عنه صفية وسيلة لهذا الغرض ، أو نفيسة بنت علية أو غلامها ميسرة على مايذكر أهل السيرة (٣) " وأنها دعمت وجهة نظرها فى اختيارها له صلى الله عليه وسلم ، من كونه صادقا وأمينا ، ومحمود السيرة ، وفيه الكفاءة التى تنشدها ، بعقلها الراجح ، وخبرتها الطويلة .

---

(١) الدكتور/ الشافعى عبدالرحمن السيد : سلطة القاضى فى التفريق بين الزوجين .
(٢) سورة القصص : الآية ٢٦ .
(٣) راجع سيرة ابن هشام ص ٢٠٣ ومابعدها ولها مش ج١ كتاب التحرير .

وقد صدق حدسها ، فكان نعم الاختيار ، لرجل هو أفضل من كل الرجال ، وكانت العلاقة بينهما متبادلة ، فهي صاحبة المال ، وهو صلى الله عليه وسلم المتاجر فيه ، وهي الأم وهو الأب وهي الجانب الضعيف وهو الجانب القوي ، لذا نعمت به وسعدت الأسرة ، وكانت أول من آمن به صلى الله عليه وسلم من النساء ، وكان صلى الله عليه وسلم ، حافظا لها حقها ، حتى بعد مماتها ، وكان دائما يذكرها بخير ، ويبر صديقاتها ، بل ان عقدها كان له عند الرسول بعد وفاتها من المنزلة ما كان له عندها (1) " .

تنمية الغريزة :

سام القوم المرأة سوء العذاب قديما ، وجعلوها محط الشهوة ، وملجأ الشيطان ، وسقط المتاع ، وكانت مشاعرها الغريزية - فيما يقتضي الحاجة الى الرجل - محل تجارة بوار ، فهي تدير الكؤوس ، وتنام اذا شاءت الرؤس ، لاقيمة لمشاعرها ، ولاحرمة لعواطفها وما عليها الا أن تكون لعوبا ترضى من تقع في أحضانه ، ثم اذا فرغ منها جاء الثاني . دون مراعاة لضعفها أو لملمة ما بقي لديها من حياء ، وربما اشتعلت جذوتها ولم تجد من يطفئوها الا كهلا أقعده السن ، أو عنين لايصل بها الى مراحل الارتواء .

الا أن الاسلام قطع ذلك وأمثاله ، وأعطى المرأة الحق في طلب التطليق ، اذا غرر بها زوج مريض لايروي ظمأها . أو عنين أو مقطوع ، وخشيت على نفسها الفتنة ، وهذا في حد ذاته مؤشر واضح وقويم ، الى نظرة الاسلام للأسرة ، حتى في أخص الخصائص ، وأدق الأمور واذا غررت المرأة بالرجل ، وكانت رتقاء أو قرناء أو بها مرض يمنع الرجل من حقه في

---

(1) راجع رياض الصالحين باب من البر أن يود الرجل ود أهله ...
وراجع قصة العاص زوج السيدة زينب رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصة أسره واسلامه .

الوصول اليها كما أمر الشرع الشريف، بما يحفظ عليه دينه، أعطى الاسلام الرجل الحق فى طلاقها دون أن يلحقه شئ . بل كان له أن يسترد ما منحها اياه، من صداق وغيره اذا شاء (١) .

اذًا عنى الاسلام بالنواحى البيولوجية للأسرة، وعمل على تنميتها وتهذيبها وتقويمها وأعطى كل ذى حق حقه، حتى فى المواقف التى تقف فيها المرأة — بحكم أنها أنثى — عاجزة عن الوفاء لزوجها بتلك النواحى نبه الرجل الى عدم الاقتراب منها :—

" وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢) "

أما اذا تأبت على زوجها، ونفرت من فراشه، وهجعت الى ناحية الهجران، فان الاسلام اعتبرها ناشزا، تسقط حقوقها قِبَلَ الرجل . وهددها باللعنة، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اذا دعى الرجل امرأته الى فراشه فلم تأته . فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح (٣) " . وفى الحديث الشريف " اذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح (٤) " .

ولما كان الاغراء من المرأة غالبا، حدد الاسلام لها مسئولية العمل على



---

(١) راجع النكاح في كتب الفقه والعيوب التى يرد بها الرجل والتى ترد بها المرأة .

(٢) سورة البقرة : الآيتان ٢٢٢، ٢٢٣

(٣) رياض الصالحين : باب حق الزوج على امرأته . والحديث متفق عليه .

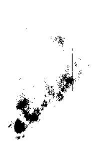
(٤) المرجع السابق : نفس الباب .



اطفاء ذلك السعار العاطفي الغريزي لدى زوجها فقال صلى الله عليه وسلم " اذا دعا الرجل زوجته لحاجته فلتأته وان كانت على التنور [1] " فاذا ما سكنت الغريزة الغائرة، اطمأنت النفس القلقة، وهدأت الجوانح المتقدة، فعاد ذلك بالخير على الأسرة والمجتمع، فأى عناية تعدل ذلك؟ وأى هدى مثل ذلك ؟!

من هنا نخلص الى أن علم الاجتماع، فى عصر النبوة المباركة، لم تكن له أقسام، لأن مصدره كان واحدا، وانما كان موضوعه متعددا، باعتباره يتعامل مع الأفراد، والأسر، والمجتمع. وفى القرآن الكريم، قيم اجتماعية مثالية، يمكن تطبيقها بلا ضحايا، ويمكن التعامل معها دون حساسيات، والسنة النبوية المطهرة كذلك. فى كل ما تناولا فيه الأفراد باعتبارهم لبنات اجتماعية، والمجتمعات باعتبارها تمثل العمران البشرى كله.

وما جدّ من تقسيمات لهذا العلم، انما هو اجتهاد مال الى ناحية التفكير العقلى الحر، بعيدا عن واقع النصوص المقيدة لذلك. وبالتالى فاننا نرى أن نتحدث عن أثر حلف الفضول فى العصر الحديث، محاولين عدم البحث فى فترة طويلة من الزمن بداية من محاولات تعريب الفكر اليونانى والاغريقى الى البيئة العربية الى العصر الحديث.



ولن نتعرض لشئ من تلك الحقبة الا بما تقتضيه الضرورة ولانجد عنه محيصا، كما أنه لاغرض للبحث الا الوصول الى الحقيقة، التى ينشدها المؤمن ويفرح بها اذا وجدها، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: " الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها [2] " ومن يطالع تعريف علم الاجتماع وأقسامه، يجد أثر حلف الفضول فيها، علامة بارزة، وأصلا تفرعت عنه.

---

(١) المرجع السابق : نفس الباب والحديث رواه الترمذى والنسائى.
(٢) حديث شريف.



منهج علم الاجتماع

المنهج . هو الطريق الواضح ، ومثله النَّهج والمنهاج ، الموصل الى المطلوب ، الذى يرتجى ، والمأمول المنتظر (١) ، وهو الطريق المجهول الذى يوصل الى المعلوم ، أو الطريق المعلوم الذى يوصل الى مجهول ولكل من هذه التعاريف دلالة محددة ، ومفهوم واضح معنى به . اذًا فما هو منهج علم الاجتماع ؟

والجواب :

أن الباحثين قد اختلفوا فى منهج علم الاجتماع ، كل بحسب تصوره وثقافته ، ونظرته للموضوع ذاته ، وطريقة معالجته لمسائله وجزئياته . حتى اعتقد البعض " أن علم الاجتماع قد تأسس منذ نشأته على دعامة مزدوجة ، مؤلفة من القواعد الرياضية ، والتجارب العلمية (٢) " وأن منهجه لايخلو عن هاتين الناحيتين ، ناحية التجريب وناحية التجريد .

غير أن هناك من يرى أن علم الاجتماع " لابد له من مناهج تخدم العلم فى الدراسة والغاية . وهذه المناهج هى : المنهج التاريخى . والمنهج التجريبى الاجتماعى . والمنهج الاحصائى (٣) . وأن هذه المناهج يكمل بعضها البعض الآخر ، بحيث لايكون لعلم الاجتماع أمل فى البقاء إن تخلى عن واحد منها .

ونحن أشد ميلا الى أن علم الاجتماع العمرانى البشرى ، يختلف فى منهجه عن كثير من العلوم وأنه الى منهج الاستقراء العلمى الناقص أقرب ، حتى يتم فحص كل فرد فيه بعناية ، ووضع الحلول للأفراد والمجتمعات . بصورة علمية خالية من التعميم أو الغموض ، والاستقراء الناقص فى ذلك أيسر طريقا ،



(١) أساس البلاغة : مادة نهج .
(٢) د / محمد غلاب : مشكلة الألوهية ص ٢٣ ٧ : دار احياء الكتب العربية .
(٣) د / محمد ابراهيم الفيومى : مقدمة فى علم الاجتماع الدينى ص ٢٩ مكتبة الازهر ط : ١

وأفضل منهجا ، طالما أن المقصود هو دراسة العمران البشرى على ماهو عليه ، رغبة فى الوصول الى ماهو أفضل له .

أجل . تعددت المناهج فى دراسته . كما تعددت بحثا عن معالجة مشكلاته وتقديم أيسر الحلول لها .

ولكن اذا رجعنا الى الغاية التى ينشدها كل أولئك ، وجدنا أنها لاتخرج عن تحقيق الأمن ومحاولة توفير الأمان ، والعمل على مواجهة أوجه الخلل الاجتماعى ، ومحاولة ايجاد حلول لها . ولايخرج ماانتهى اليه حلف الفضول الجاهلى ، عن تلك الغاية فى شئ .

فاذا ماطالعنا تاريخ الاجتماع . كعلم له موضوعه ومسائله ، وجدنا أسماء عديدة ، عربية وغير عربية ، مسلمة وغير مسلمة . فابن خلدون العربى المسلم - والذى أثبت فى مقدمته الشهيرة ، قدرته على تناول قضايا علم الاجتماع ومعالجتها ، حتى ظن البعض أنه أول واضع لأسس علم الاجتماع وأن - " المقدمة لم تكن تلمسا بسيطا لعلم الاجتماع ، بل كانت محاولة ناجحة ، لاستحداث علم الاجتماع ، حيث نادى ابن خلدون بوجوب اتخاذ " الاجتماع الانسانى " موضوعا لعلم مستقل [١] .

ويرى الأستاذ ساطع الحصرى " أن حق ابن خلدون بلقب مؤسس علم الاجتماع ، أقوى من حق كونت . ذلك لأنه كان قد فعل ذلك قبل " كونت " بمدة تزيد على أربعمائة وستين عاما [٢] " .

ويرى " توينى " فى كتابه (دراسة فى التاريخ) أن ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ ، وهى بلا شك أعظم كتاب من نوعه خلقه أى عقل فى أى زمان ومكان [٣] " .

---

(١) د / محمد ابراهيم الفيومى : مقدمة فى علم الاجتماع الدينى ص ٢٠

(٢) دراسات على مقدمة ابن خلدون جـ١ نقلا عن المرجع السابق .

(٣) العلم عند العرب ص ٢١٨ نقلا عن المرجع السابق .



من جماع تلك ، نرى أنهم ركزوا على سبق ابن خلدون لغيره في تأسيس علم الاجتماع دون نظر الى تاريخ العرب القديم ، الجاهلي أو غيره ، ولو فتحوا الباب أمام البحث الحر ، بعيدا عن رمي العرب بالجهل ، ووصفهم بالنكارة ، لواجهوا سيلا جارفا ، من الأفكار الاجتماعية الخالصة ، والتي طبقت لديهم قديما فحفظت عليهم ما يعاني العالم من مثله الآن (١) .

وحتى ابن خلدون ذاته ، لم يسلم العرب من طعناته ، ونظرته الشعوبية التي رمى العرب بها ، فوصفهم بالتوحش والبربرية والبداوة ، رغم أنه تونسي المولد ، أندلسي العرق ، عربي اللسان والمنشأ ، مسلم الديانة والمعتقد ، ورغم أن عبقريته ضاعت في طيات النسيان، الا أن مؤلفاته أعادتها ، فكانت بمثابة النهاية السلبيّة لتقدمه على غيره في علم الاجتماع، لأن نظريات الجنس والعِرْق وقضية التفضيل أنهارت أمام قوانين الاجتماع ونظرياته ، وبالتالي فالقائل بها قد أنقص من قدر نفسه ، وأوقعها في غير مأمن . وعارضته أسس علم الاجتماع وعاندته قواعد تاريخ الأجناس وقوانين التطور العمراني . مما أوقع بابن خلدون في مهب رياح ، تعصف به أو تنحني شفقة عليه (٢) وتؤكد

---

(١) يعاني العالم من مشكلة توقع الفناء الجماعي . والتي تكمن في تحريك المفاعلات النووية ولو بطريق الخطأ ، أو الحرب النووية ولو من لحظة غضب . كما حدث مع المفاعل النووي - تشرنوبيل - الذي خرج عن وقاره ، فهدد الاتحاد السوفيتي والعالم الغربي كله ، وأثر بشكل ملحوظ على سكان المناطق القريبة منه حتى سنوات طوال ، من أبريل ١٩٨٥م ، وهذا من مجرد انفعاله ، فما بالك من انفجاره ؟ أو انصهاره ؟ .



(٢) راجع : ابن خلدون وتراثه الفكري ، وتمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية الامام مصطفى عبدالرازق وفلسفة التاريخ عند ابن خلدون ، د / طه حسين ، مقدمة تاريخ الحضارة الاسلامية - لبارتولد - كتبها د / عبدالوهاب عزام .

شعوبيته، ودعوته اليهـا (١)" .

ونحن نقرر أن هناك محاولات جادة، سبقت ابن خلدون ١٣٣٢ - ١٤٠٦م وغيره لتأسيس قاعدة دقيقة، تناط بها مصالح المجتمع وأمنـه ، وسواء كانت تلك المحاولات قد اتسمت بالواقعية، والتطبيق العملي ، كما حدث عند العرب الجاهليين ، أو اتسمت بالفكر الخيالي ، كما هو الشـأن لدى اليونان القدامى كأفلاطون في جمهوريته ومن جاء بعده أو لـــدى الصينيين والهنود، فيما أثر عنهم من مؤلفات . كان لها فضل توجيـــه النظر الى قيمة الدراسات الاجتماعية فضلا عن مباحثها وقوانينها .

من ثمّ كان الواجب على من يتجه الى علم الاجتماع، أن يتتبع أثره ، وأن يرجع بالفكرة الى مصدرها الأصلي . فذلك أوفر للبحث، وأجدر أن يقوم بـه الباحث فاذا قيل ان واضع علم الاجتماع هو ابن خلدون ، كان ظلما لغـيره واذا قيل أنه أوجست كونت، صاحب المدرسة الاجتماعية، والفلسفـــة الوضعية، أو انه " دوركايم " أو غيرهم فان في هذا تجاوزا يرتفع عنـه أدب البحث في العلوم الاجتماعية . وقد تقدم أثر حلف الفضول في هذا الصدد .

حقا إن لكل واحد منهم أثره، كما أن له نظرياته التي يتمسك بها ويدافع عنها ، ولاشك أنها جميعا قد أثرت في الاجتماع العمراني كعلم، وأثرتـــه ببحوث عديدة تناولت فيه موضوعات شتى ، بحيث يكون من الخطأ اغفال دورها أو اهماله، فضلا عن انكاره ، ولكن لايكون لواحد منهم الحق في الادعاء بأنه مؤسس العلم، أو واضع كل نظرياته ، أو أنه أسبق من غيره ، خاصة اذا كـان من جاءوا في مطالع عهد النهضة الحديثة، أو مع بواكير الثورة الصناعية .

---

(١) د / طلعت أحمد علي محسن : الدعوة الاسلامية في مواجهة الشعوبية رسالة ماجستير بكلية أصول الدين القاهرة ص ٥٠ وما بعدها حيث يرى : أن الشعوبية " نزعة عرقية تتعصب لبيئتها ولجنسها . يقوى في ذلـك العرب والعجم . وان كانت تتجه ضد العرب غالبا " وان كنا نخالفـه الرأي ، لأنه لم يعرف عن العرب هذا اللون من التعصب وانما هـي دخيلة من بيئات مختلفـــة .



الفصـــل الســـادس

أشهـــر مدارس علـــم الاجتمـــــاع



أشهر مدارسه

تمهيد :

لعلم الاجتماع — قديما وحديثا — مدارس متنوعة ، كما أن الباحثين فيه لهم مذاهب متعددة . وبالتالى فان الحديث عن المذاهب والمدارس والاتجاهات فى علم الاجتماع ، يقتضى البحث عنها ، وتقسيمها وتصنيفها فى حدود المنهج المتاح .

بيد أن هذا البحث لم يتناول علم الاجتماع غرضا ، انما أصابه عَرَضاً . من هنا فاننا سنعمل على أن نلم بأطراف القضية ، فى ايجاز تقتضيه تلك العجالة السريعة . يحدونا أمل فى الله ، أن نخصص لعلم الاجتماع وقتا آخر نَجِئُ اليه ونستوجعه ، فنعمل على بسط مسائله ، وشرح غوامضه ، وبيان ما نجد الحاجة ملحة اليه .

أما هنا : فاننا سنكتفى بأشهر مدارسه قديما حتى عصر النبوة وكلها اشارات سريعة ، كأنها رؤس مباحث . ومن ابتغى المزيد والاستفاضة فليلجأ الى المصادر ، ربما تعينه على تحقيق مطلوبه . أو تقربه اليه .

أ — المدرسة القديمة الكلاسيكية :

وهى مدرسة لم تنل حظها من الدراسة ، كما لم يصبها من الشهرة النصيب وان كان لها الأثر الكبير ، فى الفكر الاجتماعى على الخصوص ، والانسانى على العموم ، بما تركته تلك المدرسة من أحلاف ومعاهدات ومواثيق : اجتماعية وسياسية ، وما نسب اليها من بطش وتطرف أو خيال وطموح وما تخلف عنها من عدل اجتماعى ، ووفاء سياسى ، ونصرة للمظلوم ، وايواء للغريب ، واحترام للمقدسات الدينية ، والعادات الاجتماعية .



ويمثل تلك المدرسة أصدق تمثيل ، الأتباع الأوائل لكل نبى ، من أنبياء الله والمرسلين خاصة بعد انتهاء رسالة الرسول ، أو نبوة النبى ، ويدخل مع



هؤلاء ، الحنفاء والمتعبدون والأتباع المرشدون ، فى كل أمة على حدة ، وفى كل مجتمع على الخصوص ، بعيدا عن النبوة الأخيرة ، لأن لها قدرا آخر ، وتسمية أخرى .

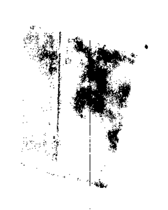
وتلك المدرسة الكلاسيكية اتخذت لها منهجا محددا ، هو المنهج التكاملى ، باعتبار أن المجتمع كله وحدة واحدة ، بكل مافيه من أفراد ، وما يقتضيه من مصالح ، ومايدفع عنه السوء والمكروه . وان كانت سجلاتهم لم تحفظ كاملة ، ولم يتح لها قدر من الشيوع والبيان وكانت معالجتها لمسائلها ، ذات طابع محدد ، يتمثل فى القبول للوضع الراهن ، أو الرفض أما القضية الهامة التى كانت تحفزها ، وتحاول المدرسة جمع أطرافها فهى مسألة بقاء ذلك المجتمع أو فنائه ، وفى حدود مايتمكن أفرادها منه ، أو يستطيعون الوصول اليه . ولم تكن لها من غاية ، الا المحافظة على تلك الجنة التى نعم بها الآباء ، مونها للأبناء .

ب — المدرسة القديمة الملتزمة :

وهى مدرسة الحكماء والمفكرين ، الذين نالوا حظا من الثقافة وقدرا من التعليم ، وكانت نصيحة بكل ماتعنيه من حكم وآداب اجتماعية ، وقيم متوارثة وعادات مألوفة ، صبغت كل جيل منها بصبغة العصر الذى حفل بهم . ولم تعط واحدا الحق فى الخروج على القواعد العامة والإلف الموروث .



يمثل هذه المدرسة حكماء اليونان القدامى ، الذين شغفهم البحث الميتافيزيقى ، فانصرفوا اليه : ولكن تركوا آثارا اجتماعية ، أنارت السبيل لمن خلفهم ، من أمثال انكسمانس وانكساغوراس ، وديمقريطس ، هيراقليطس ، وكذلك من أمثال المبدعين فى الفن والمحلقين نحو النجوم . من الشعراء والمتنسكين



أمثال هوميروس، وهيزيود ، فى الأثر الجارف ، الالياذة والأوديسا والذى ترك بصمات اجتماعية خالدة ، ظغت على مشاعر دانتى اليجيرى فى أثره المعروف (١) . فلم يتمكن من منازعته واستسلم له .

وكانت مسائل الاجتماع لدى تلك المدرسة . ما يمكن أن يتحقق به الرفاهية للمجتمع كله ، ولو كانت تكلفته أغلى ما يملكونه . من حبات العرق ونبضات الحياة . وكان التزامهم بذلك عنيفا وقاسيا ،حتى ترك بصماته على طاليس ، وسقراط وبقية حكماء الصين والهند رغم أن طاليس وسقراط كانا اغريقيين .

ولعل أفلاطون فى جمهوريته قد حاول أن يطور من أسلوب تلك المدرسة فى معالجة قضاياها ، ولكن تطوره لم يؤت ثماره الأكيدة ، لافراطه فى التخيل واغراقه فى مصادمة الطبيعة البشرية ، ولم تكن لها من غاية الا تقديم أفضل النتائج بأقل التكاليف للمجتمع المكدود ، وان كانت لم توفق الى ذلك تماما كما كان مقدرا لها .

جـ - المدرسة الجاهلية :

وهى مدرسة ذات طابع خاص . قيادتها جمعت بين التجارة والرعى ، وقليل من الزراعة ، فأضفى ذلك عليها بُعْدَ نظر ، وحصافة تفكير ، ومحاولة استقطاب الواقع . فبالتجارة تجمعت لديها الأموال . وتعلمت أن غير الحل الترحال . فتمكنت من نقل أفضل الثقافات المجاورة اليها ، كما أنها بالسلوك الادارى ، والثقل التجارى أثرت فيما جاورها من الأمم ، فجمعت بذلك من الثقافات والعادات أجملها ، وحفظت من الآثار أفضلها . واقتنصت من الأيام

---

(١) تأثر دانتى بأولئك فى عمله الشهير " الكوميديا الالهية " وبخاصة فى المطهر والفردوس .



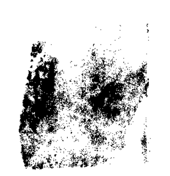
القدرة على احتمال المكاره ، كما تعلمت منها الجود حين لايكون الدواء الا بــه .

وهكذا ساحت تلك المدرسة فى أرجاء المعمورة ، من استرضاع للرضع ، الى متابعة للقوافل ، تحمل الخير كما تحمل الود ، وتسوق المثل الكريمة ، كما تدفع الأصواف وصفوف التجارة . وكانت قيادتها سريعة التأثير فيمن حولها من الأمم ، حتى كانت نظرات الأمم اليهم ، أنهم قواد أمة وأصحاب حضارة ، كما أنهم أهل تجارة . ولعل البيت الحرام فيهم أفادهم بكل ذلك .

من هنا كانت لهم نظرة اجتماعية ثاقبة . وقدر فى العدل الاجتماعى يتناسب مع مافيهم من امكانيات . ماكان يشينها الا التعنت وشدة التحفظ ، وقسوة الظروف ، والغلو فى مباشرة الصعب وركوبه . يبدو ذلك من أحلافهم التى عقدوها ، وحروبهم التى دفعوا اليها ، ولم يكن ذلك الا بغرض استقرار المجتمع والمحافظة على أمنه ، وتثبيت جوانحه وتدعيم أسسه وأركانــه .

ونظرة الى سجلهم الاجتماعى نطالع فيها ماخلفوه من تراث ، نجد أنهم فى الحضارة أسبق وأثرهم فيها لايمكن انكاره . حفلت بذلك معلقاتهم والمطولات ، وتاريخهم الطويل — بداية من تحالف الجراهمة مع هاجر أم اسماعيل عليه السلام الى بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم — حافل بكثير من الخطرات الفذة والأفكار الجادة فى العرف الاجتماعى . بكافة ألوانه .

ويخطئ من لايعتنى الا بالجانب السئ فى حياتهم ، فما من بشر غير معصوم إلا وفيه من المثالب مالايجبر الا بكثير من المشاق والمتاعب ، ومن يغمض الطرف عن محاسنهم ولايعنيه الا البحث عن مثالبهم ، يكون شعوبيا لايسمع لقوله ، ولايؤخذ برأيه ، بل ولايعتبر فيما يصدر محل ثقة واحترام . لأنه خصم نصّب نفسه حَكَماً . وقديما قيل " اذا كان الخصم حكما عليك لن يقبل منك الشهود"



وقد وقعت كثرة من المفكرين فى اصدار أحكام على العرب، غير سليمة، بل ان عددا من القضايا الخطيرة، قد حكم عليهم فيها غيابيا ، دون مراعاة لأبسط قواعد تحقيق العدالة فى اصدار الأحكام. وبعض هذه الأحكام فيه من القسوة والتجنى القدر الملحوظ، وبعضها ينطق بكل مافيه، من تعصب وبغض وشعوبية وعنصرية .

وفى تقديرى . أن الدافع للوقوع فى هذه الكبوات أمران :ـ

<u>الأول :</u> مايصدره البعض من منطلق التأثر بالغير، كما يحصل لبعض ممن تتلمذوا على يد المستشرقين فى الغرب، وبنوا لهم أهرامات فى وجداناتهم فجعلوا كل مايتعلق بالمستشرق - مهما كانت ديانته، أواتجاهه السياسى أوالفكرى - مقدسا وردد وا أقوالهم باعتبار أنها معصومة السبل ، بدهية النتائج ، ولو تعارضت مع القرآن الكريم أو طعنت فى السنة المطهرة .

وهؤلاء يرددون فى خجل أو بلامبالاة، ماحفظته نفوسهم، وتمركز فى حوافظهم ويحاولون نشره فى كل مكان ، وتحت أى ظرف ، وبأى لسان، كأنهم خلقوا لخدمة أمم أخرى، ولايعنيهم الا مخالفة دينهم الحنيف - ان كانوا مسلمين - ابتغاء رضوان المستشرقين .

<u>الثانى :</u> مايحاوله البعض من صبغ صفات سيئة للعرب قبل الاسلام، فى محاولة يائسة ليقولوا للناس . ان القوم غاية فى السوء . فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم فحولهم الى أمة قمة فى النبل ، وقاعدة فى مكارم الأخلاق، وأسطورة فى حب الآخرة وبغض الدنيا ، أوحولهم من قوم هم الوأد والزنا والقتل ، الى قوم فيهم الحب والطهر والحياة .



وعندى أن هذين الوجهين ، فيهما من الغلو مالاتكفى فيه المعاناة ولايعيده الا بيان القول فيه، واظهار ماينطوى تحت جناحيهما من الشطط ومايلاحظ فيهما من الاسراف فى التجنى لمايلى :ـ



الأول :

أن فكرة التعصب للجنس أو الدين ، مرفوضة فى دار الاسلام ، ولا مجال الا للقول الحق ، والحجة الدامغة والبرهان الأكيد . حتى أن القرآن الكريم فى مجال المحاجة أمر بالبرهان :

" قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١) " .

ومعلوم أن البرهان أمر مسلم ، والاتيان به ممكن ، ولكن أن يكون الأمر فى الاستدلال به ، كالأمر فيه ذاته . واضح لاينكره الا جاحد أو جاهل . وهذا مالم يتمكن منه المشركون قديما ، والمستشرقون حديثا . لأن كل مايظنونه برهانا ، اذا عرض على دائرة البحث وجد " مغالطيا " أو " جدليا " ان لم يكن أقل . وهذا ينطبق على المستشرقين الذين لم يهتدوا الى الصواب حتى الآن . وعلى من درسوا على أيديهم أو تتلمذوا عليهم ، واتخذوهم قدوة . وحاولوا مجاراتهم " حذو النعل بالنعل " وعلى من تأثر بهم من تلامذة لهم أو لأتباعهم لأنهم يرفضون أن يكون للعرب أى جانب ايجابى فى حياتهم الاجتماعية أو العلمية ، أو الثقافية ، حتى يصوروهم كشعب فاقد الهوية ، لاتعرف له قاعدة ، ولا ينضبط فيه عرف ، ولا يسلم فيه عرض ، ولاتصان فيه أمانة ، ولا مكان للأنثى فيه . أو بمعنى آخر ، أن يصوروهم كأفراد يعيشون فى غابة لاشجر فيها ولا ماء . وبالتالى فلايكون منهم نبى ، ولايخرج فيهم رسول ، لأنهم بهذه الصفات لايكونون قادرين على قيادة العالم . فضلا على أن يخرج من بينهم سوف يكون حاملا كل صفاتهم ولو كان نبيا . وذلك غاية فى الاسراف والتجنى .



__وعندى__ : أن فكرة الوأد مثلا ، لم تكن لدى كل العرب ، والا انقرضوا من أول عهد لهم ، فما بالهم فى ازدياد حتى قبل الاسلام ؟ ولو كان الوأد

---

(١) سورة النمل : الآية ٦٤

عادة لهم . ما وجدنا التعدد بغير حدود يسود فيهم ، فما بالنا وجدنا تعداد هم الكثير ، حتى ما كان من ملك اليمين ؟ ولو كان الوأد عادة فيهم ما سمعنا عن حزام وصدقها ، والخنساء وشجاعتها ، بل ولا سمعنا عن عبلة وجمالها ولما فتن قيس بليلى . وبالتالى فالوأد كان فى نفر قليل منهم ، ولظروف خاصة و لأنه عدوان على نفس بغير ما أحل الله حرمه الاسلام الحنيف والتزم به العرب المسلمون فى كل مكان من الجزيرة العربية ، وأرض الاسلام الواسعة .

واذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أمما كثيرة ساد الوأد فيهم ، وما يزال حتى الآن ، رغم أننا فى القرن العشرين . نسمع كثيرا عن وأد الفتيات والزوجات والبنات فى طوائف متعددة بالهند ، حتى ان المرأة اذا انقضى عام على وفاة زوجها . اندفعت الى أهلها طالبة منهم اشعال النار فيها ، حتى تلحق به وفاء له .

ولأهله الحق فى أن يطوفوا بها المدينة التى يقطنونها ، فى موكب مهيب ، تحمل من خلاله الرسائل الى زوجها . وفى نهاية المطاف تلقى بنفسها فى اليم — انتحارا — أو يلقون هم بها اذا تراجعت هى . بل ان أهلها يقاطعونها خوف العار ، ان هى لم تتقدم لوأدها ، ويسارعون لمحو ذلك العار بالقضاء عليها . والقارة الأفريقية فيها من ذلك الكثير .

بل ان ما عرف عن سكان أمريكا الأصليين — الهنود الحمر — من عادات يؤكد أن وأد البنات فيهم عادة مستحسنة ، وأنهم كانوا يبادرون الأنثى عند ولادتها ، بالتهامها أو القائها فى النار ، وهم يشاهدونها تذوب عظامها والشحوم . بل ان أمها غالبا ما كانت تحضر ذلك الحفل الاجرامى العنيف الذى تأباه كل الضمائر الحية والنفوس الأبية ، فهل كان الوأد فى العرب فقط ؟ وهل فيهم كلهم . أليس ذلك فى نفر قليل جدا ؟ وقضى القرآن الكريم



عليها تماما فى وعيده ، :

" وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (١) " .

الثانـى :

أن أمة العرب كان فيها من الصفاء والنبل والشهامة ، والكرم والشجاعة والقدرة على احتمال الصبر والمكاره ، ما جعلها قديرة على تحمل أعباء الرسالة ، التى بعث بها نبى منهم . بل ان أذهانهم الصافية وحوافظهم القوية مكنت لهم من أن يستقبلوها ، فيسارع اليها بعضهم . رجالا ونساء وفتيانا وكهولا . ويلوى عنها الآخر ، فيحصل نوع من الجدل والمناقشة بين أنصار هؤلاء وخصوم أولئك . وينتهى الأمر برسالة الهية لكل المكلفين يحملها اليهم العرب الموحدون تحت قيادة نبى رؤوف رحيم ، من خلال تعاليم اليها انزلها الغفور الرحيم جلا وعلا .

وبالتالى . فتصوير العرب بالمناقص ، وصبغهم بالمعايب قبل الاسلام فيه اجحاف بحقوق أولئك الأطهار — كأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وخديجة بنت خويلد — وقد كانوا جميعا قبل الاسلام غاية فى الطهر والنقاء ، وكانوا حفظة أنساب وهذاة سلوك فلما جاء الاسلام زان فعالهم . وثبت ايمانهم . وطهر كل مالهم . فهل يعاب العرب قبل الاسلام بهم ؟ .

اذا هى مدرسة جاهلية لم يأتها نبى (٢) ومع هذا حافظت على حق الجار وصانت حق النزيل فى الجوار ، وقد أمنته على نفسه وماله وعرضه ، حيا أو ميتا ، ولعل تلك من العادات الاجتماعية التى أقرها الاسلام فيهم . فقال



(١) سورة التكوير : الآيتان ٩،٨

(٢) كل هذا حديث عن الجزيرة العربية قبل الاسلام .

تعالـــــى :

" وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (١) " .

فأين هذا فى العرف الجاهلى . منه فى العرف الحديث . الذى يقـــرر أن النزيل الأجنبى حقه " من حيث التشريع العالمى ، مقصورعلى اكرام مثواه (٢) " ولست أدرى اذا كان مهدر الحق فى حال حياته ، فما فائدة اكرام مثواه بعد وفاتــه ؟ وهل يضير الشـــاة سلخها بعد ذبحهـا ؟ .

بل ان حق اللجوء السياسى الذى يتغنى به البعض الآن ، و يتســترون من خلاله على خونة أوطانهم ، ومغتصبى أموال شعوبهم ، من جرائيم بشرية نزعت منها الرحمة الانسانية لايوجد له مثيل فى الفكر الاجتماعـــــى الجاهلى . انما يوجد المثل الأعلى . فى حق اجارة من طلب الجوار بشروطـه كأن يكون مهانا فى بلده ، غير قادر على دفع الأذى عن نفسه وأهله ومع هذا يأتى اليهم فى غير مال (٣) . فيكونون له الأهل والمال والعوض ، فربما تركـه لماله ، يذكر قومه به فيتفتح له من جديد موصد و قلوب ، وعمى عيون ، و يفكون له مغل يد ، و يطلقون فيه مسعى قدم . فأين هذا مما يدعيـه اجتماعيـــــو العصـــر الحديـــث ؟ .

وألا يكون عينا لغيرهم عليهم ، وألا يتخذ من الجوار ذريعة للوصولية ، وعلى العموم ، أن يعمل لصالح بلد الجوار بكل ماتعنيه كلمة الصالح من مفاهيم وحتى اذا اتسعت دائرة الخلافات ، ونشبت بين البلدين المنازعـات . كـــان عليه أن يلزم عدم التدخل فى شئون بلد الجوار الداخلية أو الخارجيــــة الا بقدر ماتطلـــب منــه القيادة العليـــا لبلد الجـــوار .

---

(١) سورة التوبـــة : الآيـــة ٦

(٢) كانت : مشروع للسلام الدائم ترجمة د. عثمان أمين المادة الثالثة من القسم الثانـــــى .

(٣) راجع هجرة الرسول (ص) وأصحابه وخروجهم من أموالهم فى هجرتى الحبشة وبيعـــة العقبــــة .



مدرسة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة :

وهى مدرسة ذات طابع دينى مسلم، منهجها له مصدران ٠ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة٠ وقيادتها رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وصحابته والتابعون من بعده، السائرون على نهجه٠ المتتبعون أثره ، المحافظون على أوامر الله تعالى ونواهيه، المجتهدون فى أحكام دينه، الذين رضوا بالله تعالى ربا ، وبالاسلام دينا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ٠

وهى مدرسة تخصصية، بحيث ينال الاجتماعى كل فرد فيها حظه ، كما يجد فى كل مكان سؤاله، يراعى فيها الزمان وقيمته ، كما ينظر الى الأفراد ومايصدر عنهم٠ من خلال منظور متسع الجنبات يرقب الأفراد مهما كانت سنى حياتهم من المهد الى اللحد ، كما ينظر الى مايصدر عنهم، ومايجب أن يساهموا فيه، وطبيعة القدر الواجب فى ذلك كله٠ نجد ذلك فى المصدرين الأساسين لتلك المدرسة حتى أمكن أن يقال :ـ

ان " فى القرآن فلسفة انسانية، تتعلق بالانسان فى مختلف حالاته وأوضاعه، باعتباره عضوا أوفردا فى أسرة، أوعضوا فى مجتمع صغيرأوكبيرة أوعضوافى أمة ،أوعضوا فى جماعة الانسانية كلها ٠ ان القرآن ـ الكريم ـ لم يهمل ناحية من النواحى ، فكان بذلك منبعا لأصول الفلسفة الانسانية والاجتماعية على تعدد فروعها وتنوعها ٠ وكان بذلك واضعا للأسس العامة التى يقوم عليها المجتمع السليم الذى دعا اليه [1] " وفى كل جانب من جوانب الحياة وفى كل شأن من شئونها نطالع ذلك بوضوح ٠ بداية من الفرد باعتباره وحدة اجتماعية، أوعضوا فى أمة فيها تكافل اجتماعى نلحظه فى قوله صلى

---

(١) الدكتور/ محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة ص٢٦ دار المعارف مكتبة الدراسات الفلسفية ٠

الله عليه وسلم : " المؤمن للمؤمن يشد بعضه بعضا [(١)] " .

بل ان هنالك دراسات متخصصة ، وبحوثا مستفيضة ، قام بها أصحابها بغية الوصول الى بيان عناية القرآن الكريم والسنة المطهرة بذلك الجانب الهام فى حياة المجتمع الانسانى على العموم ، والعمرانى على الخصوص . واتخذت لأبحاثها تسميات عدة ، ونتج عنها كم هائل من الأبحاث والنظريات والنتائج . من ذلك مثلا :-

(١) المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الاسلام منه [(٢)] :

وقد عالج المؤلف مسألة هامة هى المجتمع الانسانى المثالى ، من حيث وضع لبناته وتكوين أجزائه ، كل ذلك فى الفكر الانسانى ، الفلسفى منه فقط ، ثم عمل على عقد المقارنة ، بين مايرى اليه الفلاسفة ، وما انتهوا نحوه ، وبين النهج الاسلامى من خلال القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، مؤيدا ما انتهى اليه بأقوال الباحثين من المفكرين المسلمين وغيرهم .

(٢) الانسان فى القرآن الكريم [(٣)] :

وقد تناول فيها الانسان من خلال نظرة قرآنية ، بداية ونهاية ، وأثره فى المجتمع الانسانى الذى يعيش فيه ، وما يجب أن يكون عليه ، ليرقى بالمجتمع الذى يقطنه الى مرحلة متقدمة ، يبسط عليه من خلال وجوده ، جناح الألفة والمحبة ، وينشر عليه من أعابير الود ما يكفى لنموه وتطوره .

---

(١) مسند الامام أحمد جـ٤/ ٤٠٤ ، ٤٠٥ عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وقد أخرجه كل من : (أ) البخارى فى صحيحه كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع فى المسجد وغيره جـ١/ ٥٦٥ حديث رقم ٤٨١ (ب) الامام مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم ذخائر المواريث جـ٣/ ٢٢١ .

(٢) دراسة نال بها درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر كلية أصول الدين بالقاهرة الدكتور محمد سيد أحمد المسير بتقدير ممتاز من قسم العقيدة

(٣) دراسة نال بها الدكتوراه من جامعة الأزهر قسم التفسير بكلية أصول الدين بالقاهرة الدكتور ابراهيم مهنا .

(٣) مكانة المرأة فى الأسرة المسلمة[١] :

وقد عنى الباحثون فى هذا المؤتمر، والمشاركون فيه، ببيان دور المرأة فى بناء المجتمع من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، واجتهادات الفقهاء، وتقريرات الأصوليين ..

(٤) القرآن والمرأة[٢] .

(٥) المرأة فى التصور الاسلامى[٣] .

(٦) المرأة فى التاريخ والشريعة[٤] .

(٧) باكورة الكلام، فى حقوق النساء فى الاسلام[٥] .

(٨) نداء للجنس اللطيف، حقوق النساء فى الاسلام وحظهن من الاصلاح المحمدى العام[٦] .

وغير ذلك من الأبحاث الدقيقة، والمؤلفات الرصينة، التى انتهت الى نتائج تعلن فى جلاء، عناية المدرسة الاسلامية - القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة - بالاجتماع . وقد امتدت تلك المدرسة فطاولت الدهر، وتشعبت مع الأيام فشغلت جزءا كبيرا منها، وظهرت فى كتابات متعددة، وتحت موضوعات مختلفة، يبين عنها من أول وهلة، منهجها وطريقة معالجتها لمسائلها . ومانتتهى إليه من نتائج .

---

(١) المؤتمر الأول للمركز الدولى الاسلامى للدراسات والبحوث السكانية بجامعة الأزهر ... ديسمبر ١٩٧٥م

(٢) الامام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت .

(٣) الأستاذ / عباس محمود العقاد .

(٤) الأستاذ / محمد جميل بيهم .

(٥) الأستاذ / حمزة فتح الله .

(٦) الشيخ / محمد رشيد رضا الحسينى .

ولايحسبن أحد أن المرأة هى الأصل فى المجتمع، وانما هى جزء فيه عنينا بها لابراز دورها وحتى لاتحاول التخلى عنه، فتطالب بغيره كما يفعل دعاة المدنية، وتجار العواطف فى العصر الحديث ـ فتخسر الأمرين معا. كما لا يظن أحد أن عناية البحث بالمرأة نوع من التعصب لها. وانما لأنها صاحبة كرية ننفشها عنها. بقدر مايتاح لنا.

أما دور الرجل فهو بحكم الإلف مكفول، كما أنه فى الشرع موصول وأهيب به أن يحافظ عليه. فهو الراعى لأسرته والمسئول. وأخشى أن يسقط من يديه فتسوسه ناقصة عقل ودين، أو يركضه رجل مخنث فى حماية قانون وضعى مشلول يسقطه القوامية ويلقى عن كاهله المسئولية. فيحط من قدره، وينقص من سلطانه، ويحوله الى طاقة معطلة. ويثير غير ذلول. ترفضه الأسرة، ويلفظه المجتمع، وتلقى به الظروف فى غياهب جب عميق تحت جنح ليل ظليم.

وتلك المدرسة الاجتماعية الدينية، ماتزال فى كتابات السلف الصالح. وأهل السنة والجماعة، تمثل الجوهر النقى. والايمان السليم، والعقيدة الراسخة فى بناء مجتمع سليم، على أسس واقعية خالية من المثالب، تنفذ نحو الخلود وتتقدم اليه بخطى قوية وثابتة. ومهما يكن من أمر تلك المدرسة، فانها هدت البشرية الحائرة الى طريق الرشاد، وجعلتها تتجرع تعاليمها فى يسر واطمئنان ومنحتها الزاد الكفيل للسفر حتى تواجه عناءه، وتتحمل وعثاءه.



ومن هنا بدأت محاولات متعددة، لفصل الدين عن الاجتماع، واعتبار الاجتماع مسألة كبرى، والدين جزئية له، حتى سمى الاجتماع الدينى، ولاينبئك عنه مثل خبير، وراح الباحثون فيه يضعون أسئلة هى للميتافيزيقا أقرب. يحاولون بها تفسير الكيان الدينى فى الانسان، وعملوا على جعل الدين ظاهرة، وليس غريزة، فقالوا الظاهرة الدينية فى علم الاجتماع. وتناسوا تأكيد القرآن الكريم على فطرية الدين فى الانسان، حيث قال تعالى :

" فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا . فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١) » .

ولاشك أن أصحاب هذا الاتجاه ، هم من أنصار المستشرقين ، بل هم ذاتهم ويكفى المسلم أن قمة الاجتماع فى الاسلام الدين ، وأن الدين حب مثالى قال عنه صلى الله عليه وسلم : " والله لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه " (٢) .

---

(١) سورة الروم : الآية ٣٠

(٢) جامع الأحاديث جـ٧/٣٩٧ ، والامام أحمد فى مسنده جـ٣/١٧٦ والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى والبيهقى .

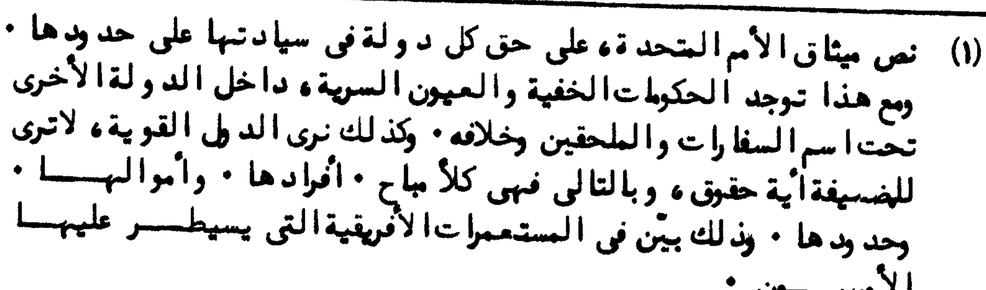
نتائج ختامية

نتـــائـج ختاميـــة

أبنـا فيما مضـى مكانة علم الاجتماع ، وأثـر حلف الفضول الجاهلى ، فى الأحلاف والمعاهدات والتكتلات التى يعمل أصحابها على حفظ توازن القوى . وتأكد لدينا أن حلف الفضول عند العرب كان الى ذلك أسبق ، وفى قراراتـه ونظرته أعمق . حتى صار من لحسن القول ،بأن حلف الفضول الجاهلى وضـع أسسـا لحلف وضعى مثالى ، يعيش أفراده فى أمان ، ويصدق كل منهم الرأى ويحسن فى المشورة . ولايفوقه فى ذلك ، الا ماكان على أسس الاسلام .

وأنهم فيما يصدرون حكماء عقلاء ، رغم وجودهم فى مجتمع جاهلى — وأن ماانتهوا اليه من حلفهم وعملوا على تطبيقه ، قد عجزت أمم متحضرة عـــن الاتيان بمثله . فضلا عن عدم الالتزام بماانتهوا اليه من رأى ، وما وضعوه مـــن ثقوب تنفذ منها الابل كثيرة الكم ، وتنسلب فيها الجيال الشـم (١) .





(١) نص ميثاق الأمم المتحدة ، على حق كل دولة فى سيادتها على حدودها . ومع هذا توجد الحكومات الخفية والعيون السرية ، داخل الدولة الأخرى تحت اسم السفارات والملحقين وخلافه . وكذلك نرى الدول القوية ، لاترى للضعيفة أية حقوق ، وبالتالى فهى كلأ مباح . أفرادها . وأموالهـــا . وحدودها . وذلك بيّن فى المستعمرات الأفريقية التى يسيطـــر عليهـــا الأوربيـــون .

بل ان كل شئ مباح . الى الحد الذى يعتبر الدفاع عنه خيانة يجب التأديب عليها . كما حدث فى السنوات الأخيرة ، بين انجلترا والأرجنتين على جزيرة فوكلاند ، وحرب أمريكا وفيتنـام ، والعراق وايـران ، والخلاف الذى نشأ أثناء كتابة هذه السطور بين قطر والبحرين وكذلك ماكان بـين بنما وأمريكا ومأساة القناة . والعدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦م والطغيان المدمر للروس على أفغانستان ، ومحاولات الابتزاز التى تقع على الكويـــت وغيرها من دول آسيا وأفريقيـا . وأمريكا اللاتينيـــة .



وكم من حلف عقد ، ومعاهدات وثقت ، لتبديد شعوب بأسرها وتمزيق أمم بأكملها ، كل هذا تحت اسم الحضارة ، وعلى موائد المدنية (١) .

---

(١) والمثال الواضح لذلك ، ابتلاع الصهيونية العالمية ، لأرض فلسطين العربية المسلمة الحبيبة أرض المسجد الأقصى ، وموطن ابراهيم الخليل ، وموئل عيسى نبي الله ، ومرتع موسى كليم الله ، والتي ترعرع على سهولها لوط ، واغتذى على نباتها ، وحكم في ربوعها ، وقضى بين أهليها أطول فترات عمره نبي الله داود عليه السلام ، ومن بعده ولده سليمان عليهما السلام . والتي حفلت بنبي الله زكريا عليه السلام ومن بعده نبي الله يحى عليه السلام ، وعرج منها الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهي أرض نبوة وسلام ، أرض حب ووئام ، أرض عرب مسلمين عند الله كرام ، ومع هذا قامت الصهيونية العالمية تقتطعها ، وتلد فيها مولودا أجدعا هو اسرائيل . التي عمل أفرادها على استباحة كل المحرمات . من عقيدة وشريعة ومعاملات وأخلاق .

فكم من ساجد لله منعوه ، وكم من عالم شرع لله قائم اعتقلوه ، وكم من مال أضاعوه ، وحامل لغير ذنب بقروها ، ومن يتيم وأرملة وشيخ مسن ، وعجوز لايقوى على القيام فزعوهم ، وفي الجحيم ألقوهم ، وللعذاب ساموهم . ولا ذنب لهم الا أنهم عرب من أهل فلسطين ومازال المأساة قائمة بكل معانيها . بل ان نواياهم لتوزيع العدوان ، وتقسيم الركبان ، وتمزيق عباد الرحمن أصبحت أقوى وأمر .

وكذلك جنوب أفريقيا العنصرية ، التي يحاول من يسمون أنفسهم البيض ، ابتلاع الشعب الأفريقي ، صاحب الأرض والدار ، وتحويله الى شعب ضال لاجئ رغم وجود أرضه ووطنه وجنسه وهويته . ومازلنا نسمع والعالم المتحضر كله الخسائر الفادحة التي يلحقها البيض المستعمرون وجنونهم الأرعن بأصحاب الأرض الأفارقة رغم وجود الأمم المتحدة . فأين هذا من حلف الفضول الجاهلي . وأين النتائج من النتائج ؟ .

وانتهينا الى أن حلف الفضول الجاهلي . كان ثمرة لتجارب عديدة ، واحتكاك العرب بغيرهم من أمم الأرض قاطبة ، حيث رحلتي الشتاء والصيف ، وأعباء التجارة ، ومهام السفارة ، وحماية البيت الحرام والقيام على شئونه .

وتأكد لكل ذى نظرة أن العرب فى الماضى — قبل الاسلام — لم يكونوا جميعا ، ولا النسبة الكبيرة فيهم ، على الهمجية والبغضاء ، والحروب والدمار والفحشاء ، بل كانوا على العكس من ذلك . اللهم الا الشواذ . وفى كل مجتمع شواذ .

حتى صار من البدهى القول بأن أمة العرب قبل الاسلام ، كانت أفضل الأمم المهيأة لاستقباله ، وان مافيهم من اصرار وتمسك ، وحمية على المعتقد والعرض والمال ، كان بادرة طيبة نمت فى رحاب العنصر العربى الأصيل الذى تعبأ بها ليكون جديرا بتحمل أعباء الرسالة الخاتمة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم

وقد تأصلت فيهم رابطة الدم ، كما ضعفت أمام أعينهم مباهج الحياة [1] ، من هنا وجدناهم يعلنون النفرة ويستعرضون قواهم ، اذا اعتدى على واحد منهم ، ويواجهون الموت بشجاعة . لالشئ الا لأنهم يدافعون عن علائق الدم ووشائج القربى ، ويتوغلون فى لهيب البيداء ، استردادا لعير مسروقة أو غلام منفلت ، ومثل هؤلاء يحملون الدعوة دون مواربة أو خوف ، لايقصيهم عنها سلطان جبار ولاتستدر عواطفهم دموع جائرة خاصة اذا خلصت النية وسلم المعتقد ، بل ولايثنيهم عرض زائل [2] .



---

(١) راجع مصادر السيرة لتعلم حجم ماعاناه أبو طالب لعمومته للنبى صلى الله عليه وسلم . ومع هذا لم يتخل عنه حتى مات فى السنة العاشرة من البعثة النبوية .

(٢) راجع ماكتب عن مصعب بن عمير . لتعرف مقدار التضحية التى قام بها فى سبيل نصرة دين الله الاسلامى وحتى أكرمه الله ونزل فيه قرآن يتلى الى يوم الدين .

من ثمّ كانوا أمة بدوية متحضرة ، جاهلية واعيـة ، نالت حقها بكـد اليمين وعرق الجبين ، وصارت بحق جديرة بتقبل خير نبى ، نبت من خـير البطون العربية ، وحقا قال عنه " ديزيريه بلانشيه " : " كان محمـد خير ثمرة ، لخير شجرة نبتت فى شبه جزيرة العرب (١) " .

ونخلص الـى مايلـى :

١ ـ أن الأمم التى تحتاج الى أحلاف وضعية ، هى التى تتنكب سيرة أنبيائها ويضل أبناؤها سبيل الرشاد ، الذى ارتضاه خالق العباد ، المولـى القديـر الالـه الواحـد الأحـد .

٢ ـ أن الأنبياء والمرسلين لايحتاجون الى تحالف وضعى ، لأنهم من حـزب الله ، وحزب الله دائما هم الغالبون :

" كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢) " .

وبالتالى فان فكرة الأحزاب والأحلاف ليست أصلا فى الاسلام ، انما هـى دعوى سياسية لادخل لها فى الدين وان تسمت باسمه ، أو انتسبت اليـه لأن الاسلام أخبر فى القرآن الكريم بوجود حزبين فقط

الأول = حـزب اللـه :

" أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣) " .

ولهـم صفاتهم التى فـازوا بهـا .

الثانى = حـزب الشيطـان :

" أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٤) " .

---

(١) الدكتور / محمد غلاب : الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية ص ١٤ طبعـة المجلس الأعلى للشئون الاسلاميـة .

(٢) سورة المجادلة : الآية ٢١ (٣) سورة المجادلة : الآية ٢٢

(٤) سورة المجادلة : الآية ١٩



ومن هنا فان التحالف والتعاضد والتعاهد بصورته الحالية ، والتى لايقرها الاسلام فى حال من الأحوال ، ليست ملزمة للمرء المسلم ولاحرج عليه إن خالفها .

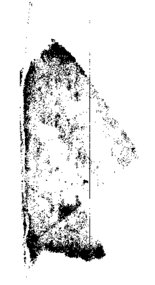
٣ - سبق العرب لغيرهم منذ القدم . فى الأفهام والمعانى والدلالات - الاجتماعية ، وكذلك المعاهدات التى تصون المال والعرض والدم ، وتحمى النزيل ، ويبلغ المستجير بهم مأمنه ، وان حلف الفضول الجرهمى كان أول ثمار ذلك النضج العربى ، فى جانبه الدينى والاجتماعى والسياسى بما حوته نصوصه .

٤ - أن الحروب التى كانت تنشأ بين العرب وغيرهم ، أو بينهم وبعضهم . انما كانت فى الأساس دفاعا عن غريب مضطهد ، أو لاجئ طلب الجوار . أو مال يوشك أن يتبدد ، أو بناء يخشى عليه من الانهيار .

٥ - أن الحروب التى سبقت حلف الفضول القرشى ، من حرب الفجار ، أو حادثة الفيل أو حلف المطيبين ، وما انتهت اليه من نتائج ، كلها تؤكد أصالة العقل العربى ، ونضجه الى الحد الذى يجعل العرب قديما أمة متحضرة ، وحديثا . بعد أن زانها الاسلام ، أمة مسلمة .

٦ - أن حلف الفضول القرشى ، قد ترك بصماته على الأمم المجاورة للعرب وحاولوا تقليدهم فيه وان لم يتمكن غيرهم من الوصول بما فكروا ، الى مثل ما وصل العرب قديما .

٧ - أن الاسلام الحنيف بما أضفاه على العرب من مهابة وجلال قدير أن تنصاع اليه الأمم جميعا ، وأن تلتزم به عقيدة وسلوكا . وأن تتوحد فى أركانه ، وأن تذوب فى كل قواعده وأحكامه . فهو خير لكل فرد على ظهر البسيطة ، بما يحققه للانسانية على وجه العموم . ولكل مؤمن به على وجه الخصوص .



٨ ـ أن العرب قد سبقوا العالم كله ، بما تركوه من آثار في العلم والدين والأخلاق والاجتماع وأن الاسلام قد صبغ ذلك كله بالتأسيس والثبات والعموم . فأتوا على العالم المظلم . بضياء الدين الشفيق الذى لم يألفوا مثله من قبل . وماتزال الأضواء المشعة ، تطل على البشرية المجهدة ، تلامسها مع نسمات فجر قريب ، أو لجات بحر عميق ، ولا ينكر فضل العرب والمسلمين على العالم كله الا مكابر ، أو جاهل أو متعصب ، أعمته شعوبيته عن النظر السليم ، وقول الرأى القويم ، ولا ينبئك مثل خبير .

٩ ـ أن الأثر الايجابى الذى تركه حلف الفضول القرشى على العالم في الناحية السياسية قد كشف عن تقدم خطير للعرب في الناحية السياسية ، وأزال الغموض الذى أحاط بالانسان العربى ، حتى لم يعلم الناس الكثير عنه ، الا من خلال الجانب المظلم فقط ، والمحزن أن الظلم ما زال يقع على العرب حتى الآن ، رغم اثبات كفاءتهم ، وبعثة الرسول الكريم فيهم ، وانتشار الاسلام بهم .

١٠ ـ أن محاولات العرب المحافظة على البائع وسلعته ، واجباره على التعريف بها وتقديمه البيانات الكافية عنها . وتحريك السلعة بالصورة التى تحقق للمواطن ماينا ط بها . أمر اقتصادى غاية في الأهمية ، وقد سبق العرب الأمم المتحضرة اليه فكانوا بحق تاجا فوق هامات الأمم .

١١ ـ أن أثر العرب ـ بأحلافهم قديما ، وبخاصة حلف الفضول ـ في علم الاجتماع واضح للعيان بما تركوه من تعاليم ونصوص ، وما خلفوه من معاهدات ومعاملات ، حتى صار من الحق القول بأن وميض النور الذى انبثق من الجزيرة العربية جذب اليه الأنظار ، ولهج بذكره المراقبون .

١٢ — أن المدرسة الاسلامية — قرآنا وسنة — قد كشفت الخفايا والسقطات الاجتماعية ، ورسمت طرق معالجتها ، والقيام عليها ، كما حددت الأخطاء التي وقعت فيها الانسانية خلال رحلتها الطويلة وحددت طرق معالجتها ، وكيفية تفاديها ، مما يجعلها أمة قال الله فيها :—

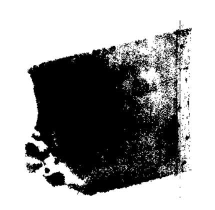
" كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١) " .

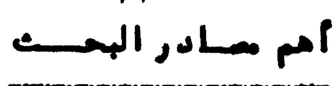
والله أعلم !



---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠





أهم مصادر البحث

هنا ملاحظتان :

الأولى : أن البحث والباحث مدينان لكل من سبق فى هذا الميدان . وبخاصة أولئك الذين استفاد البحث منهم . وكانت أبحاثهم مصادر أساسية له . سواء اتفق معهم أو اختلف .

الثانية : أن ترتيب المصادر روعى فيه الترتيب الأبجدى بعد التجريد من أل التعريفية . مع بيان اسم الشهرة . وذلك كله بعد القرآن الكريم ، وكتب السنة والمعاجم والسيرة .

أولا : القرآن الكريم والتفسير :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ تفسير النسفى .. ط الحلبى .

٣ ـ الفتوحات الالهية بتوضيح الجلالين .

٤ ـ القرآن العظيم ـ ابن كثير .

٥ ـ الكشاف .

٦ ـ سورة الأنعام ـ د . أحمد السيد الكومى ، د . محمد سيد طنطاوى

ثانيا : السنة النبوية المطهرة :

٧ ـ صحيح البخارى .

٨ ـ صحيح مسلم .

٩ ـ مسند الامام أحمد بن حنبل .

١٠ ـ رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين .

١١ ـ سنن النسائى .

١٢ ـ الترغيب والترهيب .

١٣ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى .

١٤ ـ كشف الخفا .

١٥ ـ سنن الترمذى .

١٦ ـ جامع الأحاديث .

١٧ ـ ذخائر المواريث .

١٨ ـ منتخب كنز العمال .

ثالثا : المعاجم :

١٩ ـ أساس البلاغة ـ الزمخشرى .

٢٠ ـ أقرب الموارد ـ سعيد الخورى .

٢١ ـ مختار الصحاح .

رابعا : السيرة :

٢٢ ـ الروض الأنف .

٢٣ ـ السيرة الحلبية .

٢٤ ـ سيرة النبى صلى الله عليه وسلم . لابن هشام . تحقيق الشيخ محمد محى الدين عبدالحميد .

خامسا : الرسائل الجامعية :

٢٥ ـ الزعبلاوى ـ محمد السيد :
الأمومة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة . ماجستير بكلية أصول الدين بالقاهرة ـ قسم الدعوة .

٢٦ ـ محسن ـ طلعت أحمد على :
الدعوة الاسلامية فى مواجهة الشعوبية . ماجستير بكلية أصول الدين بالقاهرة ـ قسم الدعوة .

سادسا : مراجع عامـــــة :

= ت =

٢٧ - التهامى - الدكتور/ محمد مختار - الصحافة والسلام العالمـــى ط دار المعـــارف .

= ج =

٢٨ - جواد على - الدكتور - تاريخ العرب فى الاســلام .

= ح =

٢٩ - الحوفى - الدكتور/ أحمد محمد - بلاغة الامام على . نهضة مصر .

= د =

٣٠ - ديفيد وايز وآخرون : الحكومة الخفية - دار المعارف - ترجمة جـورج عـــزيـــز .

= ر =

٣١ - الراجحى - الدكتور/ عبدالغنى عوض - محاضرات فى التاريـــخ والسـيرة النبـــويـــة .

= ز =

٣٢ - زيادة - الدكتور/ محمود محمد - العرب وظهور الاسلام ط"١"

= س =

٣٣ - السيوطى - الامام جلال الدين عبدالرحمن - الأشباه والنظائـــر فـــى فروع فقـــه الشافعيـــــة ط الحلـبى .

٣٤ - السيد - الدكتور/ الشافعى عبدالرحمن - سلطـة القاضى فـــى التفريق بين الزوجين .

= ش =

٣٥ - الشريف الرضى - أبوالحسن محمد بن أبى أحمد الحســين - المجازات النبوية ط الحلبى تقديم عبدالرؤف سعد

٣٦ ـ الشافعى ـ الامام محمد بن ادريس ٠ الرسالة تحقيق الشيخ أحمد شاكر

= ع =

٣٧ ـ عنان ـ الأستاذ / محمد عبدالله ٠ ابن خلدون حياته وتراثه
الفكرى ٠ دار الكتب المصرية ٠

= غ =

٣٨ ـ غلاب ـ الدكتور / محمد ـ مشكلة الألوهية ٠ دار احياء الكتب العربية ٠

٣٩ ـ الاسلام من خلال مبادئه التأسيسية ط المجلس
الأعلى للشئون الاسلامية ٠

٤٠ ـ الغزالى ـ الشيخ محمد ـ فقه السيرة ٠

= ف =

٤١ ـ الفيومى ـ الدكتور / محمد ابراهيم ـ مقدمة فى علم الاجتماع الدينى
مكتبة الأزهر ٠

= ك =

٤٢ ـ كانت ـ عمانويل ـ مشروع للسلام الدائم ـ ترجمة د ٠ عثمان أمين ٠

= م =

٤٣ ـ موسى ـ الدكتور / محمد يوسف ـ القرآن والفلسفة ٠ دار المعارف ٠

= ن =

٤٤ ـ نصر ـ الدكتور / زكريا أحمد ـ مقدمة فى نظرية القيمة ٠ دار نهضة مصر ٠

٤٥ ـ نصار ـ الدكتور / عبدالمقصود وآخرون ـ السيرة النبوية ٠

سابعا : المؤتمرات الدولية :

٤٦ ـ المؤتمر العالمى الاسلامى للأمومة ـ المركز الاسلامى للدراسات والبحوث
" الأمومة فى الاسلام " السكانية بجامعة الأزهر
الشريف ١٩٧٨م



فهرست الموضوعات

هـــذا الكتاب

قد يبدو للناظرين أن الفلسفة محيط لاشاطىء له ، أو إنها بئر لايعرف له قرار ، من ثم فقد بـدا النظر إليها نوعـاً من إستهلاك الوقت ، والنظر فيها ضرباً من المستحيل ، بينما الأمر جدّ يسير ، إذ أن ما سلف من أحكام لايعدو أن يكون عرضاً لأدلة قضية من جانب واحد ، وبالتالى فإن الإنصـاف هو النظر إلى قضية الفلسفة من كافة أطرافها ، والإستماع الجيد لكل الشهود ، وإستنطاق الجوانح المهذبة حتـى تدلى بشهادتها فى أمر الفلسفة من غير ضغط عليهـا أو تعصب لغيرها .

وهذا الكتاب محاولة لطرح القضية من جديد ، وإعـادة النظر فى موضوعاتها ونظرياتها ومشكلاتها بما تلى مـن الأدلة على أن يكون الحكم فى المسألة لصدق الأدلـة وتقييم الشرع وصحيح العقل لأن هذه القضية ـ الفلسفة ـ مما لايجدى فيه حكم أديب أو قضاء فنان .

رقـــم الايـداع

٧٢٤٩ / ٩٦

الترقيم الدولى :
977-0981 -9

طبعة ثانيـــــــــة